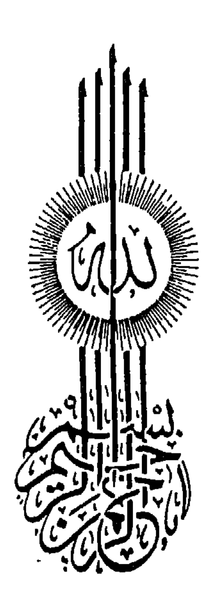
ناصر مكارم الشيرازي

الزهراء
خير نساء العالمين

دار الهادي
بيروت - لبنان


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الزهراء
خير نساء العالمين


بسم الله الرحمن الرحيم

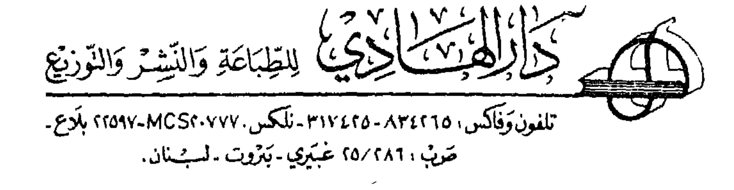


ناصر مكارم الشيرازي

دار الهادي
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٣م



تلفون وفاكس: ٨٣٤٢٦٥ - ٣١٧٤٢٥ - تلكس. MCS٢٠٧٧٧-٢٢٥٩٧ بلاع -
ص.ب: ٢٥/٢٨٦ غبيري - بيروت - لبنان.

المقدمة

مصير المرأة المؤلم عبر التأريخ

بسم الله الرحمٰن الرحيم
وبه نستعين

«كانت مريم سيّدة نساء زمانها أما ٱبنتي فاطمة فهي سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين».

الرسول الكريم «ص»

* * *

إنَّ للمرأة عبر التاريخ ماضٍ مؤلم، ومن كون ضعفها جسدياً مقارنةً بالرجل نرىٰ ظلمة التأريخ قد اجتهدوا كثيراً في سبيل سحق انسانيتها وشخصيتها، فما أبشع ما ٱرتكب بحقها، خصوصاً في مكانٍ كالحجاز وعصرٍ كالجاهلية (علماً أنّ العالم أجمع كان غارقاً في الجاهلية في ذلك العصر) فقد كانوا أكثر تجاهلاً وتحطيماً للمرأة وشخصيتها من أيِّ مكانٍ آخر.

إسترقت، تباع وتشترىٰ كسائر البضاعات

لا نصيب لها في إرث الرجال

يستاؤون إذا ولدت لهم أنثىٰ، وكما نعلم فقد كانت البنت توأد بمجرّد أن تدرك نور الحياة، والعجيب في ذلك تجاهلهم لقوانين الطبيعة، حتىٰ صار الشعر القائل:

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا ... بنوهُنَّ أبناء الرجال الأباعدِ!

مصداقاً لتفكيرهم الردي ورؤيتهم المتخلفة بالمرأة.

أما الإسلام الذي جاء لإحياء القيم الإلهية والإنسانية، حارب وبشدة ذلك التفكير الجاهلي وصرخ منادياً بأحياءِ شخصية المرأة المحرومة ومن خلال طرق متعدّدة منها:

طريق الموعظة والإرشاد والتعليم

طريق مشاركتهنّ في مختلف الأمور، تقنين قوانين تحفظ لهنَّ حقوقهنَّ، وبالتالي مواجهة من لا يرضخ أو يعترف بهذه الحقائق مواجهةً صارمة.

ورد في الحديث: عادت

«أسماء بنت عميس» مع زوجها «جعفر بن أبي طالب» من الحبشة متوجهين إلىٰ زيارة زوجات الرسول «ص»، وكان السؤال التالي ضمن ما سألته أسماء: هل نزلت آيات قرآنية بحق النساء؟ فأظهرن لها جهلهنّ بالأمر.

ثم ذهبت «أسماء» إلىٰ النبيّ «ص» وقالت:

يا رسول الله! هل أنّ جنس النساء مُبتلىٰ بالضرر والعذاب؟.

(قد تكون محقةً في سؤالها، فقد كانت بعيدةً عن مبدأ الوحي لسنواتٍ عديدة، وكانت تظن أن هناك بقايا ورواسب للتقاليد التي كانت سائدةً أيام الجاهلية).

قال الرسول الكريم «ص»: لماذا؟

قالت: لأنّه لم يأتِ في الإسلام والقرآن بحقهن ما جاء في حق الرجال! وبالرغم من مرور خمسة أعوام علىٰ الهجرة، وثمانية عشر عاماً علىٰ ظهور الإسلام، وحينها كان القرآن الكريم وأحاديث الرسول «ص» قد أشارت إلىٰ مسألة إحياء شخصية المرأة، ولكن عاد التأكيد ثانيةً علىٰ هذا المعنىٰ ومن خلال الآية الخامسة والثلاثين من سورة الأحزاب. الآية التي أظهرت الحقيقة القائلة بتساوي حقوق كلٍّ من الرجل والمرأة، ممّا يدل علىٰ علوٍّ موقعها.

وقد بيّنت الآية الكريمة تلك المساواة علىٰ النحو التالي:

«إن المسلمين والمسلمات»
«والمؤمنين والمؤمنات»
«والقانتين والقانتات»
«والصادقين والصادقات»
«والصابرين والصابرات»
«والخاشعين والخاشعات»
«والمتصدّقين والمتصدّقات»
«والصائمين والصائمات»
«والحافظين فروجهم والحافظات»
«والذاكرين الله كثيراً والذاكرات»
«أعد الله لهم مغفرةً وأجراً عظيماً»

وبهذا الشكل فقد وضع الإسلام النقط علىٰ الحروف في هذا المجال كما في باقي مجالات الحياة، وأظهر بأن المرأة والرجل جنباً إلىٰ جنب في مسيرهما إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ وإلىٰ تحقيق القيم الإنسانية، خطوةً بخطوة، فله ما لها وعليه ما عليها.

لقد تعجب البعض، أن كيف أعطىٰ الإسلام الحق للمرأة في مطالبة الأجر علىٰ رضاعتهنَّ لأطفالهنّ، حيث تقول الآية الكريمة: ﴿ فإن أرضعن

لكم فآتوهنّ أجورهنّ ﴾[1] .

ومن هيِ المرأة التي طلبت أجراً ـ خصوصاً تلك التي تعيش حياةً مشتركةً مع زوجها ـ في مقابل أن ترضع طفلها وفلذة كبدها؟

ولكن يجب أن لا ننسىٰ أن هذه الأوامر قد جاء بها الإسلام ليبين أنها ليست آمرأةً فحسب، وإنّما هي إنسان بكلٍّ ما لهذه الكلمة من معنىٰ أو حقوق .

إنّ من حقها التصميم في التصرف في أموالها، وأنَّ الرجل لا يستطيع سلب ذلك الحق أو تجاهله، بل إن من حقها أن تُطالب بحق الرضاعة . وما أعمق تأثير ذلك الأمر في ذلك المحيط؟! .

خلاصة القول، إنّ للإسلام حقاً كبيراً علىٰ نساء العالم أجمع، لأنه أنقذهنَّ من براثن ظالمي التأريخ، شرط أن تطبق أوامر الإسلام في هذا المجال حرفياً .

---

(١) سورة الطلاق آية ٦ .

الولادة الجليلة

فاطمة بضعة مني وهي نور عيني وثمرة فؤادي وروحي
التي بين جنبي وهي الحوراء الإنسية[1]

* * *

في السنة الخامسة للبعثة، كان الرسول «ص» يعيش أصعب الظروف والحالات، إنزواء الإسلام، قلّة المسلمين الأوائل، والضغط المسلّط عليهم من كلِّ حدبٍ وصوبٍ من جهة، وتمزّق محيط مكة بسبب الشرك وعبادة الأوثان والجهل والخرافات والحروب القبلية وتسلط مفهوم القوة والعضلات من جهةٍ أخرىٰ.

يفكر الرسول «ص» بالمستقبل، ذلك المستقبل المزهر الذي تحجبه بعض الغيوم السوداء المظلمة، المستقبل الذي يبدو بعيداً وصعب المنال إن لم يكن مستحيلاً.

وكان أن جرت للرسول «ص» في هذه السنة حادثةٌ عظيمة، حيث عرج إلىٰ السماء بأمرٍ من الله سبحانه وتعالىٰ، حتىٰ يشاهد عظمة الخالق في ذلك الملكوت السماوي الواسع بأم عينيه، ويكون ذلك مصداقاً للآية الكريمة ﴿لِنُرِيَكَ من آياتنا الكبرىٰ﴾[2]، حتىٰ تكبر روحه الكبيرة ويستعد لتحمل

---

(١) رياحين الشريعة مجلّد ١ ص ٢١.
(٢) سورة طه آية ٢٣.

رسالةٍ أعلىٰ وأثقل والمصحوبة بأملٍ أكبر.

نقرأ في الرواية المتّفق عليها من قبل السُّنة والشيعة:

أنَّ الرسول «ص» قد مر بالجنة في ليلة معراجه، فناوله جبرئيل «ع» فاكهة من شجرة طوبىٰ، وعند عودته إلىٰ الأرض أنعقدت نطفة فاطمة «عليها السلام» من تلك الفاكهة.

لذا نقرأ في الحديث أنَّ الرسول الكريم «ص» كان يقبّل فاطمة «عليها السلام» كثيراً، فقد نقل عن عائشة أنها سألت الرسول «ص»:

مالك تقبل فاطمة كثيراً؟

فأجاب الرسول «ص» قائلاً:

إنّي إذا آشتقت إلىٰ الجنة قبلت فاطمة[1].

بناءً علىٰ ذلك فإن هذا المولود المبارك قد لامس جسده الطاهر أرض هذه الدنيا في العشرين من جمادي الثاني، من أبٍ طاهرٍ كالرسول «ص» وأمٍّ عظيمة التضحية والإيثار كخديجة الكبرىٰ «رض»، ومن نطفةٍ كانت عصارةً لفاكهةٍ من الجنّة طاهرة. عندها، تسربت ظنون المشركين وآدعاءاتهم المستهزءة بالرسول «ص» بأنه أبتر لا نسل له، وصارت كنقشٍ علىٰ الماء، زال مع أول موجة. وطبقاً لسورة الكوثر فإن فاطمة الزهراء «عليها السلام» هي العين المتدفقة لديمومة طريق النبيّ «ص» وأئمة الهدىٰ والخير عبر القرون حتّىٰ يوم القيامة.

لهذه السيدة الجليلة تسعة أسماءٍ مباركة، يُشير كلُّ اسم منها إلىٰ

---

(١) نقل هذا الحديث مع اختلاف طفيف كلٌّ من «السيوطي» في «در المنثور» و «الطبري» في «ذخائر العقبىٰ» و «علي آبن إبراهيم» في تفسيره. من المعروف أن العروج إلىٰ السماء قد حدث في السنين الأخيرة من إقامة الرسول «ص» في مكة، ولكن طبقاً لما جاء في بعض الروايات أن العروج قد تكرر لعدة مرات، وهذا المعنىٰ لا يتنافىٰ مع ولادة سيدة الإسلام في السنة الخامسة للبعثة

صفات وبركات سيدة نساء العالمين، وهي:

١ ـ فاطمة	٢ ـ الصديقة	٣ ـ الطاهرة
٤ ـ المباركة	٥ ـ الزكية	٦ ـ الراضية
٧ ـ المرضية	٨ ـ المحدّثة	٩ ـ الزهراء

ويكفي أن نعرف أن آسم «فاطمة» يخفي في معناه البشارة الأكبر لمواليها ومحبيها، لأنّ «فاطمة» من «فطم» والذي يعني الانفصال أو الانقطاع عن الرضاعية.

وطبقاً للحديث الذي روي عن النبي «ص» أنه قال لعليٍّ أمير المؤمنين «ع»:

أتدري لم سميت آبنتي بآسم فاطمة؟
فقال علي «ع»: لم سميت فاطمة يا رسول الله؟
قال رسول الله «ص»:
«أنّ الله عز وجل فطم آبنتي فاطمة وولدها ومن أحبهم من النار فلذلك سميت فاطمة»[1].

من بين الأسماء يبرز اسم ـ الزهراء ـ الذي يتمتع بلمعان خاص. وقد سئل الإمام الصادق «ع»:
لماذا سميت فاطمة بالزهراء؟. أجاب قائلاً:

«لأن كلمة ـ الزهراء ـ تعني النور، وهكذا كانت فاطمة «عليها السلام»، فعندما كانت تقف في محراب العبادة كان يسطع منها نور يستنير به أهل السماوات مثلما يستنير أهل الأرض بنور النجوم، لذا أطلق عليها اسم الزهراء».

---

(١) جاء هذا الحديث في الكثير من كتب السنة، منها «تأريخ بغداد» و «الصواعق المحرقة» و «كنز العمّال» و «ذخائر العقبىٰ».

إنَّ زواج السيدة الجليلة خديجة «رض» بالنبي الكريم «ص» كان سبباً في ابتعاد نساء مكّة عنها وقطع علاقتهنَّ بها، وكنَّ يعللن ذلك بقولهنّ:

إنّها ـ أي خديجة ـ قد أهانت نفسها وحطت من شخصيتها بزواجها من شابٍّ فقيرٍ ويتيمٍ.

استمرَّ الوضع علىٰ هذا الحال إلىٰ أن حملت خديجة «رض»، فلم يكن جنينها سوىٰ فاطمة الزهراء «عليها السلام».

وعندما حان موعد الولادة، أرسلت بطلب نساء قريش ليرافقنها في تلك اللحظات الحساسة والموجعة، لكنّها فوجئت بجوابٍ قاسي وإحساسٍ بارد، حيث أجبن قائلات:

«لم تسمعي لنا وتزوجت بيتيم أبي طالب الفقير، نحن أيضاً لن نقدم علىٰ مساعدتك».

علا خديجة «رض» الغمّ عند سماعها ذلك الجواب القاسي والتافه، لكن نور الأمل عاد يشع في أعماقها نتيجة إيمانها بالله تعالىٰ، الذي لن يتركها وحيدةً في تلك الحالة.

وبدأت لحظات الوضع الصعبة، وحدها في البيت، حتىٰ خادمتها لم تكن موجودة بجانبها، وضاق قلبها أكثر فأكثر، فغضب الناس وخشونتهم تؤذيان روحها الطاهرة.

فجأة.. أشرقت روحها، وفتحت عيناها لترىٰ أربعاً من النساء قد أحطن بها، فأصابها القلق الشديد، فقالت واحدة من تلك النساء الأربع:

أنا سارة!

وهذه آسية بنت مزاحم آمرأة فرعون وهي صديقتك في الجنة.

وتلك مريم بنت عمران

وهذه الرابعة التي ترينها هي كلثُم آبنة موسىٰ بن عمران!

جئنا لنلي من أمرك ما يلي النساء.

فقالت خديجة «رض»: فولدت فاطمة فوقعت حين وقعت على الأرض ساجدةً رافعةً أصبعها[1].

نعم ذلك مصداق الآية الكريمة:

﴿ إنَّ الّذين قالوا ربُّنا الله ثمَّ ٱستَقامُوا تَتنزّلُ عليهِم الملائِكَةُ ألاّ تَخافُوا ولا تَحزَنُوا ﴾[2].

هنا بالإضافة إلىٰ الملائكة، تمثلت أرواح النساء بشخصياتٍ دنيويةٍ وسارعت إلىٰ مساعدة خديجة المؤمنة الصادقة.

أسعدَ هذا المولود المبارك نفس الرسول «ص»، حيث علا لسان المديح والثناء للخالق «عز وجل»، وأُبتر لسان الشامتين بالرسول «ص» إلىٰ الأبد.

وبشر الله سبحانه وتعالىٰ نبيّه الكريم «ص» بهذا المولود في سورة الكوثر:

﴿ إنّا أعطيناكَ الكوثَر فصَلِّ لربِّكَ وٱنحَر إنّ شانِئكَ هُوَ الأبْتَر ﴾.

---

(١) نقل بعض من علماء أهل السنّة مضمون هذا الحديث، منهم «الطبري» في «ذخائر العقبىٰ».

(٢) سورة فصّلت آية ٣٠.



الحبُّ الكبير

«إذا آشتقْتُ إلىٰ الجنةِ قَبّلْتُ نحرَ فاطمة»[1] .

* * *

كتب كل المؤرخين وأرباب الحديث أنّ للرسول «ص» علاقةً عجيبةً بأبنته فاطمة «عليها السلام» بديهي أن علاقة النبيّ الكريم «ص» بفاطمة «عليها السلام» لم تكن علاقة الوالد بولده، رغم أنَّ هذه العاطفة مكنونة في وجود الرسول «ص»، إلاّ أن حديثه وعبارته عن تلك العلاقة تشير إلىٰ وجود معايير أخرىٰ، هي التي جعلت علاقته بفاطمة «عليها السلام» بهذه الصورة.

من بين الروايات الكثيرة التي وردتنا في هذا الباب، نكتفي بذكر بعضٍ منها، والتي نقلت في الكتب المعروفة لأهل السنة والشيعة.

١ ـ «ما كان أحد من الرجال أحب إلىٰ رسول الله من عليٍّ ولا من النساء أحب إليه من فاطمة»[2] .

جدير بالذكر أن جمعاً كبيراً من أرباب الحديث قد روىٰ هذا الحديث نقلاً عن عائشة.

٢ ـ عندما نزلت الآية الشريفة

---

(١) الفضائل الخمسة مجلّد ٣ ص ١٢٧.

(٢) نُقل مضمون هذا الحديث في العشرات من الأحاديث ألتي رواها أهل السنّة (إحقاق الحق) مجلّد ١٠ ص ١٦٧.

﴿ لا تَجْعَلوا دُعاءَ الرّسولِ بَيْنَكُم كَدُعاءِ بَعضِكُم بَعْضاً ﴾[1] .

لم يخاطب المسلمون الرسول «ص» بأسمه بل بدؤوا ينادونه بيا رسول الله أو يا أيها النبيّ ـ .

تقول فاطمة «عليها السلام»: لمّا نزلت الآية الشريفة هبت رسول الله أن أقول له يا أبه . فكنت أقول :

يا رسول الله، فأعرض عني مرةً وأثنين أو ثلاثاً، ثم أقبل عليَّ فقال : يا فاطمة إنّها لم تنزل فيك ولا في أهلك ولا في نسلك، أنت مني وأنا منك، إنّما نزلت في أهل الجفاء والغلظة من قريشٍ، أصحاب البذخ والكبر، قولي يا أبه فإنّها أحيىٰ للقلب وأرضىٰ للرّب»[2] .

لقد كان لصوت فاطمة «عليها السلام» الحنون وهي تردد «يا أبتاه» وقعاً مؤثراً في نفس الرسول «ص» كوقع أمواج النسيم علىٰ البراعم المتفتحة .

٣ ـ جاء في حديثٍ آخر يدلُّ علىٰ عظمة اشتياق الرسول «ص» لابنته فاطمة «عليها السلام»، حيث تنص الرواية علىٰ :

«كان رسول الله «ص» إذا سافر كانت آخر الناس عهداً به فاطمة وإذا رجع من سفره كانت عليها أفضل الصلاة والتحيات أوّل الناس عهداً به»[3] .

٤ ـ نقل كثير من محدثي الشيعة والسنّة حديثاً للرسول «ص» قال فيه :

«من آذاها فقد آذاني
ومن أغضبها فقد أغضبني
من سرها فقد سرني
ومن سائها فقد سائني»[4] .

---

(١) سورة النور آية ٦٣ .
(٢) مناقب ابن شهر آشوب مجلّد ٣ ص ٣٢٠ .
(٣) الفضائل الخمسة مجلّد ٣ ص ١٣٢ .
(٤) نفس المصدر

مما لا شك فيه أن شخصية فاطمة «عليها السلام» الرفيعة ومستقبلها المشرق ومقامها العالي وإيمانها الصادق وعبادتها المخلصة توجب ذلك الاحترام والتقدير، كيف لا والأئمة الأطهار من نسلها، علاوة علىٰ أنها زوج أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب «ع».

لكنّ الرسول «ص» أراد أن يدرك المسلمون حقيقة أخرىٰ، ألا وهي تبيين وتثبيت نظرة الإسلام في أمر المرأة، أراد أن يقول:

لم تكن البنت لتوأد وهي علىٰ قيد الحياة

أنظروا.. إني أقبل يد آبنتي، وأتنحىٰ لها عن مجلسي، وأكن لها عظيم احترامي وتقديري.

البنت إنسان كسائر الناس، نعمة من نعم الخالق، وموهبة إلهية.

تستطيع أن تتسلق سلم الكمال كما هو الرجل، وتتقرب إلىٰ حضرة الإله.

وبهذه الصورة أحيا رسول الله «ص» شخصية المرأة المحطمة في ذلك المحيط المظلم.

فاطمة «عليها السلام» بجانب أبيها

إنّ أول شخصٍ يدخل عليَّ الجنة فاطمة بنت محمد[١]

* * *

في ذلك الوقت، كان المسلمون يعيشون مرحلة البناء والتحضير في مكة، وكانت ظروف معيشتهم صعبةً للغاية.

ففي أوائل الإسلام، المسلمون قليلو العدد، جميع القدرات المادية، القوة، السلطة وغيرها قد اجتمعت بيد أعداء الإسلام الهمجيين، مما أُتيح لهم أن يفعلوا بالمسلمين ما يحلوا لهم. فلم يعدموا الوسيلة في أذيّة المسلمين ولم يفتروا في إهانة الرسول «ص» أو التعدي علىٰ مقامه الشامخ.

نلاحظ في هذه المرحلة أن الفداء والتضحية قد تمثلت في شخصيتين دون الآخرين: فمن بين النساء، نرىٰ «خديجة» «رض» هي المسكن لجروح قلب الرسول «ص» وجسده، وهي التي تزيل بتضحياتها وحبّها وصفائها ومواساتها الغم والهم عن قلبه المبارك. ومن بين الرجال يبرز «أبو طالب» ـ رض ـ والد أمير المؤمنين علي «ع»، والذي يتمتع بنفوذٍ ومقام عاليين في مجتمع مكة، إضافة إلىٰ تدبيرٍ وذكاءٍ خارق، كلّ ذلك سخّره فيّ الدفاع عن الرسول «ص»، حيث جعل من نفسه درعاً متيناً للرسول «ص» ومساعداً

---

(١) نقل هذا الحديث الكليبي في «الكافي»، كما نقله جمع آخر من علماء السنّة في كتبهم، مثل «كنز العمّال» و «ميزان الاعندال» وغيرهما.

وحامياً حنوناً له.

ولكن يا للأسف.. فقد وافىٰ في هاتين الشخصيتين الوفيتين المضحيتين الأجل في السنة العاشرة للهجرة، فتأثر الرسول «ص» من فقدهما كثيراً وأصبح وحيداً من هذا الباب.

وقد بانت شدة حزنه من جراء مصابه بهاتين الشخصيتين اللتين كان لكلٍّ منها دور عظيم في انتشار الإسلام من خلال تسميته لتلك السنة بأسم «عام الحزن»!. ومن منطلق أنّ الله سبحانه وتعالىٰ يعوّض النعمة التي يسترجعها من عباده المختارين بنعمةٍ أخرىٰ تحلّ محلّ سابقتها، لذا فقد ترك كلّ من الأثنين خلفاً صالحاً يقومان بتأدية وظائفهما وإدامة الطريق الذي انتهجه كل من السلفين.

أمير المؤمنين علي «ع» هو امتداد لوالده «أبو طالب» «رض»، فقد كان حامياً ومساعداً ومدافعاً للرسول «ص»، وهو علىٰ هذه الحال منذ البداية لكنه قام أيضاً بوظائف أبو طالب من بعده. وخلفت «خديجة» «رض» فاطمة «عليها السلام»، تلك البنت الحنونة الشجاعة والمضحية، التي وقفت بجانب أبيها دائماً، تزيح عن قلبه الطاهر غبار الغمِّ والهمِّ والمحنة.

حينها كان الأمير «ع» في عمرٍ يناهز التاسعة عشرة، بينما ذكرت الروايات المعروفة أنَّ فاطمة «عليها السلام» لم تتجاوز الخامسة من عمرها الشريف، هذا مع العلم أنهما كانا يعيشان في بيت الرسول «ص» يؤنسانه ويخففان عنه آلام الوحدة بعد السيدة خديجة.

لم يزل للهجرة ثلاث سنوات مملوءةٍ بالأذيّة والمرارة والمعاناة بسبب ما حاكه أعداء الإسلام من مؤمراتٍ قذرة ضد الإسلام والمسلمين.

لقد نالت قريش من رسول الله «ص» من الأذىٰ ما لَم تكن تطمع به في حياة أبي طالب حتىٰ اعترضه سفيه من سفهاء قريش، فنشر علىٰ رأسه التراب، فدخل رسول الله «ص» بيته والتراب علىٰ رأسه، فقامت إليه

فاطمة «عليها السلام» فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي ورسول الله «ص» يقول لها: لا تبكي يا بنية، فإنَّ الله مانع أباكِ[1] .

وروىٰ ابن عبّاس: أن قريشاً اجتمعوا في الحجر فتعاقدوا باللّات والعزىٰ ومناة لو رأينا محمداً لقمنا مقامِ رجلٍ واحدٍ ولنقتلنه، فدخلت فاطمة «عليها السلام» علىٰ النبي «ص» باكيةً وحكّت له مقالهم، فقال: يا بنية أدني وضوء فتوضأ وخرج إلىٰ المسجد، فلمّا رأوه قالوا: هاهوذا وخفضت رؤوسهم، وسقطت أذقانهم في صدورهم فلم يصل رجل منهم، فأخذ النبي «ص» قبضةٍ من التراب فخصبهم بها وقال: شاهت الوجوه، فما أصاب رجلاً منهم إلاّ قتل يوم بدر[2] .

وهذا يدل علىٰ أنَّ فاطمة «عليها السلام» لم تكن تخدم والدها في البيت فحسب، بل وتفكر بكيفية الدفاع عنه ونجاته في خارج البيت.

حيث روي أنها كانت الوحيدة في الدفاع عنه «ص» عندما رمىٰ عليه أبو جهل روث البقر، وهو «ص» يصلي وأصحابه عند الكعبة. فلم يجرؤ أحد علىٰ التدخل، لكنها خرجت وأسمعت أبا جهل ما روعه عن الاستمرار في السخرية من النبي «ص».

نعم.. حتىٰ عند افتقار الجرأة في الشجعان من الرجال في الدفاع عن رسول الله «ص»، نرىٰ هذه البنت الشجاعة الصغيرة تسارع في الدفاع عن رسول الله «ص».

أنقضت هذه المرحلة بما فيها، وعزم الرسول «ص» علىٰ الهجرة إلىٰ المدينة، فصار لزاماً علىٰ فاطمة «عليها السلام» أن تبقىٰ وحيدةً في البيت وتترك أباها لفترةٍ مؤقّتة، حتىٰ يسمح لها بالهجرة والالتحاق به، حينها لم يكن عمرها الشريف قد تجاوز السنة الثامنة. ولكن بنفس الروحية التي تحلّىٰ

---

(١) سيرة ابن هشام مجلّد ١ ص ٤١٦.
(٢) المناقب مجلّد ١ ص ٧١.

بها أمير المؤمنين علي «ع» في اللحظات الحساسة والصعبة للهجرة، ذلك عند منامه في فراش رسول الله «ص» في ليلة هجرته وتخطيه لذلك الامتحان الذي يظهر مدىٰ تضحيته وفدائه لابن عمّه محمد «ص»، وتعريض نفسه لسيوف الأعداء، فإنّ فاطمة «عليها السلام» هي الأخرىٰ أظهرت آستعدادها في قبول وتحمل مصاعب الرسالة الجديدة دون جزعٍ أو خمولٍ أو تكاسل.

ولكن فترة الانفصال تلك لم يمكن لها أن تطول، لأنها يجب أن تكون بجانب أبيها لتدافع عنه في المدينة كما فعلت في مكة وتزيح عن قلبه النيّر غبار الهم والحوادث الصعبة، لذا توجهت إلىٰ المدينة بعد أيام قليلةٍ بصحبة نساء النبي «ص» وبمرافقة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «ع»ّ.

لم يكن دفاع فاطمة «عليها السلام» عن النبي «ص» في الأيام العادية فحسب (رغم أن أيام الرسول «ص» لم تكن عادية) بل وحتىٰ في أيام الحرب والخلافات، مثلها في ذلك مثل الرجل الشجاع في أداء مأموريته في الدفاع عن رسول الله «ص».

بعد أن انقضت فصول معركة أحد وغادر جيش العدو ساحة الوغىٰ، كان الرسول «ص» لا يزال في ميدان أحُدٍ وقد كسرت رباعيته وشج جبينه، بينما هو كذلك إذ أقبلت فاطمة «عليها السلام» وهي صغيرة السن من المدينة إلىٰ أحدٍ سيراً علىٰ الأقدام، لتقوم بغسل وجهه المبارك وإزالة الدم عن محياه الشريفة، لكن الجبين لم يزل ينزف.

عندها قامت بحرق قطعة من الحصير، ثم وضعت رماده علىٰ مكان الجرح فآنقطع النزيف، والأعجب من ذلك أنّها كانت تهيء لأبيها السلاح في المعركة التي جرت في اليوم القادم[١] .

---

(١) حدثت غزوة «حمراء الأسد» عندما عاد المشركون من وسط الطريق صوب المدينة بعد معركة «أحد» حتىٰ يكملوا ضربتهم التي وجهوها إلىٰ المسلمين، لكن الله أراد أن يرجعوا خائبين، لذا فقد ألقىٰ سبحانه وتعالىٰ الرعب في قلوبهم

في معركة الأحزاب التي هي من أهمّ الغزوات الإسلامية، وفي أحداث فتح مكة عندما انتصر جنود الإسلام علىٰ آخر متراس للمشركين والسيطرة علىٰ البيت العتيق وتخليصه من الأصنام التي كانت تلوثه، نرىٰ أيضاً فاطمة «عليها السلام» واقفةً إلىٰ جانب أبيها، ففي الخندق تقبل عليه بأقراص من الخبز معدودة بعد أن بقىٰ أياماً بدون طعام، وفي الفتح المبين نراها تضرب له خيمته وتهيء له ماء ليستحم ويغسل، حتىٰ يزيل عن جسده المبارك غبار الطريق، ويرتدي ثياباً نظيفة يخرج بها إلىٰ المسجد الحرام.

عندما واجهوا المسلمين الشجعان حتىٰ المجروحين منهم، فتراجعوا عن عزمهم.

فاطمة زوجة أمير المؤمنين الوفية

لو لم يخلق عليٌّ لم يكن لفاطمة كفوٌ[1]

* * *

الزواج الذي عقد في ملكوت السماء!
كمالات فاطمة «عليها السلام» الرفيعة من ناحية.
إنتسابها للرسول «ص» من ناحية أخرىٰ.
شرف عائلتها أيضاً من ناحيةٍ ثالثة.

كلُّ ذلك كان سبباً في سعي الكثير من أصحاب الرسول «ص» لخطبتها، وكان السلب جواب كلٍّ منهم، فلم يزوجها لأيٍّ منهم.

والملفت للنظر أنّ الرسول «ص» كان يردّد غالباً في جوابه لهم:
أمرها إلىٰ ربِّها!.

الأعجب من ذلك خطبة «عبد الرحمٰن بن عوف»، ذلك الرجل الذي تنطبق عليه كلُّ المواصفات والأعراف الجاهلية من النظرة المادية، والمهر العالي الذي قدمه والذي يدلُّ علىٰ شخصية المرأة ومنزلة الرجل الرفيعة.

فعن أنس بن مالك قال:

ورد عبد الرحمٰن بن عوف الزهري وعثمان بن عفان إلىٰ النبي «ص»،

---

(١) كنوز الحقائق ص ١٢٤.

فقال له عبد الرحمٰن. يا رسول الله تزوجني فاطمة ابنتك، وقد بذلت لها من الصداق مائة ناقة سوداء زرق الأعين كلها قباطي مصر، وعشرة آلاف دينار ـ ولم يكن من أصحاب رسول الله أيسر من عبد الرحمٰن وعثمان ـ . وقال عثمان: وأنا أبذل ذلك، وأنا أقدم من عبد الرحمٰن إسلاماً.

فغضب النبيّ «ص» من مقالتهما، فتناول كفاً من الحصىٰ فحصب به عبد الرحمٰن وقال له: إنّك تهول عليَّ بمالك؟ فتحول الحصىٰ دراً، فقومت درّة من تلك الدرر فإذا هي تفي بكلِّ ما يملكه عبد الرحمٰن[1] .

بلىٰ. . يجب أن تشخص وتطبق المثل الإسلامية في زواج فاطمة «عليها السلام»، ويتعرف المجتمع الإسلامي علىٰ القيم والمعايير الإسلامية السامية، ويسحق السنن البالية من عهد الجاهلية.

كان أهل المدينة يلهجون بهذا الموضوع، فجأةً عمت شائعة في كلِّ مكان، وهي تنصّ علىٰ أنّ رسول الله «ص» لن يزوج أبنته لغير عليٍّ بن أبي طالب «ع».

علي بن أبي طالب «ع» الذي خلت يده من المال ومن كلِّ ثروةٍ دنيوية، ولم يكن يتحلىٰ بأيٍّ من الميزات التي تقيم لها الجاهلية وزناً، لكنه كان يتمتع بإيمانٍ وقيمٍ إسلاميةٍ أصيلةٍ تملأ كيانه من مفرق رأسه إلىٰ أخمص قدميه.

وعندما تحقّق القوم عن أصل الشائعة علموا أنَّ وحياً سماوياً قد أمر الرسول «ص» بعقد هذا الزواج التاريخي المبارك، إضافة إلىٰ أنه «ص» قال:

«أتاني ملك فقال يا محمد إن الله يقرأُعليك السلام ويقول لك: إني قد

---

(١) تذكرة الخواص ص ٣٠٦ استخرجتها من كتاب «فاطمة الزهراء بهجة وقلب المصطفىٰ» ص ٤٦٢.

زوجت فاطمة ابنتك من عليٍّ ابن أبي طالب في الملأ الأعلىٰ، فزوجها منه في الأرض»[1] .

عندما دخل أمير المؤمنين علي «ع» علىٰ رسول الله «ص» وقد أخذ الحياء منه مأخذه، جلس بين يديه «ص» ولم يستطع التكلم لجلالة وهيبة صاحب الرسالة «ص». فقال له «ص»: ما جاء بك؟ ألك حاجة؟ فسكت أمير المؤمنين «ع»، فقال «ص»: لعلك جئت تخطب فاطمة؟ فقال عليّ «ع»: نعم، فقال الرسول «ص»: يا علي! لقد سبقك آخرون في خطبتها مني، وإني كلما عرضت الأمر عليها لم تظهر موافقتها، لذا دعني أحدّثها في شأنك.

صحيح أن هذا الزواج قد عُقد في السماء ويجب أن يتم؛ إلاّ أن احترام حرية المرأة في اختيار زوجها عموماً، وشخصية فاطمة «عليها السلام» خصوصاً تحتم علىٰ الرسول «ص» أن يتشاور مع فاطمة «عليها السلام» في هذا الأمر قبل البت فيه.

بعدها ذهب النبيّ «ص» لفاطمة «عليها السلام» وقال لها: أن عليّ بن أبي طالب ممّن قد عرفت قرابته وفضله من الإسلام، وإنّي سألت ربّي أن يزوجك خير خلقه وأحبهم إليه، وقد ذكر من أمرك شيئاً، فما ترين؟ فسكتت، فخرج رسول الله «ص» وهو يقول:

«الله أكبر! سكوتها إقرارها»

بعدها تم عقد القِران بواسطة الرسول «ص».

* * *

مهر فاطمة:

والآن، لنرىٰ ما هو مهر فاطمة؟.

مما لا شك فيه أنّ زواج أفضل رجال العالم بسيدة نساء العالم وابنة

---

(١) ذخائر العقبىٰ ص ٣١.

رسول الله «ص» يجب أن يكون مثلاً رائعاً، مثالاً لكلِّ العصور والأزمنة، لذا توجه الرسول «ص» إلىٰ أمير المؤمنين علي «ع» بالقول:

يا أبا الحسن فهل معك شيء أزوجك به؟ فقال علي «ع»:

فداك أبي وأميّ والله ما يخفىٰ عليك من أمري شيء، أملك سيفي، درعي، وناضحي، وما أملك شيئاً غير هذا، فقال له رسول الله «ص»: يا عليّ أما سيفك فلا غنى بك عنه تجاهد به في سبيل الله وتقاتل به أعداء الله، وناضحك تنضح به علىٰ نخلك وأهلك وتحمل عليه رحلك في سفرك، ولكنّي قد زوجتك بالدرع ورضيت بها منك[١] .

ونقرأ في روايةٍ أخرىٰ أنّ الزهراء «عليها السلام» طلبت من أبيها «ص»، أن يكون مهرها الشفاعة في المذنبين من أمّة محمد «ص»، فنزل جبرئيل «ع» علىٰ الرسول «ص» مخبراً بتلبية الله سبحانه وتعالىٰ لطلب فاطمة «عليها السلام»[٢] .

ربّما أن أغلىٰ قيمة ذكرها التأريخ لهذا الدرع كانت خمس مائة درهم.

هذا من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرىٰ نقرأ في الحديث أنّ فاطمة «عليها السلام» سألت النبيّ «ص» أن يكون صداقها شفاعة لأمته يوم القيامة، فنزل جبريل «ع» ومعه بطاقة من حرير مكتوب عليها: جعل الله مهر فاطمة الزهراء شفاعة المذنبين من أمّة أبيها[٣] .

نعم، وبهذا الشكل يجب أن تحطم القيم الخاطئة، لتحلَّ محلها القيم الأصيلة، وهكذا يجب أن تكون تقاليد ورسوم ذوي الإيمان من الرجال والنساء، وعلىٰ هذا النهج تكون حياة القادة الحقيقيين لعباد الله «عز وجل».

---

(١) إحقاق الحق مجلّد ١٠ ص ٣٥٨ ـ أو بحار الأنوار ج ٤٣ ص ١٢٧.
(٢) أخبار الدّول ص ٨٨.
(٣) إحقاق الحق ج ١٠ ص ٣٦٧.

جهاز فاطمة «عليها السلام»

المهر، الجهاز، وتشريفات العرس هي في الواقع من أهمِّ المشاكل التي تواجه العوائل المزوجة عادة، مشكلات ترافق أحياناً مراحل الحياة الزوجية وتبقىٰ آثار الفشل إلىٰ آخر عمر الزوجين.

وبسبب هذه الأمور الثلاثة نلاحظ أحياناً نشوء مشاجراتٍ لفظيةٍ، وأُخرىٰ نزاعاتٍ دمويةٍ، وما أكثر ما أُضيع من الأموال في هذا المجال بسبب التظاهر والتفاخر والمنافسة الطفولية والقبيحة بين العوائل. ورغم ذلك نرىٰ ترسباتٍ لأفكار الجاهلية في الكثير ممّن يدّعون ويداعون الآخرين بالالتزام بتعاليم الدين الحنيف.

ولكن يجب أن يكون جهاز سيدة الإسلام كما هو مهرها مثالاً نموذجياً للجميع.

وكما أمر رسول الله «ص» فقد بيع الدرع بأربعمائة وسبعين درهماً، ثم جاء علي «ع» بالمهر إلىٰ الرسول «ص». قسم الرسول «ص» المال إلىٰ ثلاثة أقسام، حيث قبض قبضةً منه ودفعه إلىٰ بلال وقال له: ابتع لفاطمة طيباً، ثم قبض بكلتا يديه مقدار من ذلك المال ودفعه إلىٰ جماعةٍ قائلاً لهم: اشتروا به ما يصلح فاطمة «عليها السلام» من ثيابٍ وأثاثٍ للبيت، ودفع مبلغاً آخراً لأمِّ أيمن لتشتري به أمتعةً إلىٰ البيت.

من الواضح أن جهاز العرس الذي يُهيّأُ بهذا القدر من المال، لا بدَّ أن يكون بسيطاً رخيص الثمن.

وقد ذكرت كتب التأريخ أن جهاز سيدة نساء العالمين قد تكوَّن من ثمانية عشر نوعاً من الحاجيات، كلّها من ذلك المال، ونذكر هنا أهمّها:

قطيفة سوداء خيبرية

قميص بسبعة دراهم

سرير مزمل بشريط

أربع مرافق من ادم الطائف، حشوها أذخر[1]

ستر من صوف

حصير هجير

رحىٰ يدوية

سقاء من ادم

مخضب من نحاس

قعب للبن وشن للماء

جرّة خضراء . . . وأمثال ذلك

نعم هكذا كان جهاز سيدة الإسلام.

* * *

مراسم حفلة العرس

أجرىٰ نبيّ الرحمة «ص» احتفالاً لهذا الزواج الذي اختاره الله سبحانه وتعالىٰ، ولهذه العائلة التي كان لها الدور الأهم في تاريخ الإسلام، والتي آنحدر منها النسل الطيب وأئمة الهدىٰ، خلفاء الله في أرضه وأمناؤه علىٰ وحيه، فأغضبت مراسم الاحتفال تلك أعداء المسلمين، ورفعت رأس الموالين عالياً، وجعلت البعداء يفكرون بمعنىٰ الإسلام.

حضرت كلٌّ من «أم أيمن» و «أم سلمة» وهما امرأتان ذواتا منزلة رفيعة في الإسلام كما أن لهما علاق وطيدةً وصميمية بفاظمة الزهراء «عليها السلام»، عند رسول الله «ص» في بيت عائشة مع باقي زوجاته، فأحدقن به «ص» وقلن: فديناك بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله وقد اجتمعنا لأمرٍ لو أنَّ خديجة في الأحياء لقرّت بذلك عينها.

---

(١) أذخر: نبات طيّب الرّائحة.

قالت «أم سلمة»: فلما ذكرنا خديجة بكىٰ رسول الله «ص» ثمَّ قال: خديجة وأين مثل خديجة، صدقتني حين كذَّبني الناس ووازرتني علىٰ دين الله وأعانتني عليه بمالها، إنّ الله عزّ وجلّ أمرني أن أبشر خديجة ببيتٍ فيَ الجنة من قصب [الزمرد] لا صخب فيه ولا نصب.

قالت «أم سلمة»: فقلنا: فديناك بآبائنا وأمّهاتنا يا رسول الله إنّك لم تذكر من خديجة أمراً إلاّ وقد كانت كذلك غير أنّها قد مضت إلىٰ ربّها، فهنأها الله بذلك وجمع بيننا وبينها في درجات جنته ورضوانه ورحمته، يا رسول الله وهذا أخوك في الدنيا وابن عمّك في النسب عليّ بن أبي طالب يحب أن تدخل عليه زوجته فاطمة «عليها السلام»، وتجمع بها شمله. فقال: يا أم سلمة فما بال علي لا يسألني ذلك؟ فقلت: يمنعه الحياء منك يا رسول الله.

قالت «أم أيمن»: فقال لي رسول الله «ص»: انطلقي إلىٰ عليٍّ فائتيني به فخرجت من عند رسول الله «ص» فإذا عليّ ينتظرني ليسألني عن جواب رسول الله «ص»، فلما رآني قال: ما وراءك يا أم أيمن، قلت: أجب رسول الله «ص».

قال «ع»: فدخلت عليه وقمن أزواجه فدخلن البيت وجلست بين يديه مطرقاً نحو الأرض حياءً منه، فقال أتحبُّ أن تدخل عليك زوجتك؟ فقلت وأنا مطرق: نعم فداك أبي وأمي، فقال: نعم وكرامة يا أبا الحسن أدخلها عليك في ليلتنا هذه أو في ليلة غد إن شاء الله، فقمت فرحاً مسروراً وأمر «ص» أزواجه أن يزين فاطمة «عليها السلام» ويطيبنها ويفرشن لها بيتاً ليدخلنها علىٰ بعلها، ففعلن ذلك.

وأخذ رسول الله «ص» من الدراهم التي سلمها إلىٰ «أم سلمة» عشرة دراهم فدفعها إليّ وقال: اشترِ سمناً وتمراً وأقطا، فاشتريت وأقبلت به إلىٰ رسول الله «ص»، فحسر عن ذراعيه ودعا بسفرة من أدمٍ وجعل يشدخ التمر

والسمن ويخلطهما بالأقط حتىٰ اتخذه حيساً.

ثمَّ قال يا علي ادعُ من أحببت، فخرجت إلىٰ المسجد وأصحاب رسول الله «ص» متوافرون، فقلت: أجيبوا رسول الله «ص»، فقاموا جميعاً وأقبلوا نحو النبي «ص»، فأخبرته بأن القوم كثير، فجلل السفرة بمنديل، وقال: ادخل عليَّ عشرة بعد عشرة، ففعلت وجعلوا يأكلون ويخرجون ولا ينقص الطعام، حتىٰ لقد أكل من ذلك الحيس سبع مائة رجلٍ وامرأة ببركة النبي «ص».

قالت «أم سلمة»: ثم دعا بأبنته فاطمة، ودعا بعليٍّ «عليهما السلام»، فأخذ عليّاً بيمينه وفاطمة بشماله، وجعلهما إلىٰ صدره، فقبل بين أعينهما، ودفع فاطمة إلىٰ عليٍّ وقال: يا علي نعم الزوجة زوجتك، ثم أقبل علىٰ فاطمة وقال: يا فاطمة نعم البعل بعلك، ثمَّ قام يمشي بينهما حتىٰ أدخلهما بيتهما الذي هُيىء لهما، ثم خرج من عندهما فأخذ بعضادتي الباب فقال: طهركما الله وطهر نسلكما أنا سلم لمن سالمكم وحرب لمن حاربكما، أستودعكما الله واستخلفه عليكم[1].

ليعتبر عشاق الدنيا وذوو الإيمان الضعيف المتأثرون بزخارف هذا العالم المادي، الذين يرون كرامة وجلال العائلة في التشريفات القاصمة للظهر التي تقام في العرس، وليستلهموا من هذا البناء التربوي للإنسان الذي يعدّ ثروةً وكنزاً لسعادة كلٍّ من الشباب والشابات، وليتفحصوا صفحات التأريخ ويشاهدوا بأعينهم كيف طبقت تعاليم الإسلام في أحداث «خطبة» و «مهر» و «جهاز» و «مراسم حفلة زواج» سيدة الإسلام فاطمة الزهراء «عليها السلام».

---

(١) بحار الأنوار ج ٤٣ «تأريخ الزهراء» ص ١٣١ ـ ١٣٢.

فاطمة «عليها السلام» بعد ارتحال أبيها «ص»

ما زالت بعد أبيها معصبة الرأس باكية العين، محترقة القلب[1].

* * *

انقضت الفترة السعيدة من حياة سيدة النساء فاطمة الزهراء «عليها السلام» بسرعة، وذلك بوفاة النبيّ الكريم «ص». - رغم أنها لم تذق معنىٰ السعادة في أيٍّ من مراحل حياتها بسبب الضغوط والحروب والمؤامرات التي حاكها الأعداء ضد الإسلام والرسول «ص»، مما طرد الهدوء والطمأنينة عن روح فاطمة «عليها السلام» - .

وبأرتحاله «ص» إلىٰ الرفيق الأعلىٰ بدأت رياح الظلم والمصاعب تهب علىٰ آل بيته الميامين. فظهرت من جديد أحقاد بدرٍ وخيبر وحُنين التي دُفنت في عصر الرسول الأمين «ص»، تحت التراب، وثار المنافقون بأحزابهم لينتقموا من الإسلام ومن آل بيت محمد «ص» وخصوصاً أبنته فاطمة الزهراء «عليها السلام» التي كانت تمثل مركز الدائرة التي صوبت نحوها سهام الأعداء المسمومة.

ألم فراق أبيها من ناحية
مظلومية أمير المؤمنين علي «ع» المؤلمة من ناحيةٍ أخرىٰ.

---

(١) المناقب ج ٣ ص ٣٦٢.

المؤامرات التي حاكها أعداء الإسلام من ناحيةٍ ثالثة.

وقلق فاطمة «عليها السلام» علىٰ مستقبل المسلمين وكيفية الحفاظ علىٰ ميراث القرآن.

اجتمعت هذه الأمور مع بعضها مسببةً ضغطاً علىٰ روحها وقلبها الطاهرين، لكن فاطمة «عليها السلام» أخفت همها وغمها عن روح زوجها الطاهرة مخافة أن يتسع جرحه الناتج من معاناته لظلم الأمة له وتجاوزها علىٰ الكثير من وصايا رسول الله «ص». لهذا كانت تذهب إلىٰ قبر أبيها «ص» لتبثَّ إليها آلامها وحرقة أعماقها وما آل إليه حالها، فقد قالت ذات مرّة:

«يا أبتاه بقيت والهةً وحيرانةً فريدة، قد انخمد صوتي وانقطع ظهري وتنغص عيشي». وفي مرةٍ أخرىٰ نراها تقول:

قُـل للمُغيّـبِ تَحـتَ أطبـاقِ الثّـرىٰ ... إنْ كُنـتَ تَسمَـعُ صَـرخَتـي وَنِـدائيـا

صُبّـتْ عَلـيَّ مَصـائِـبٌ لَـوْ أنّهـا ... صُبّـتْ عَلـىٰ الأيّـام صِـرنَ لَيَـالِيـا

قَـدْ كُنْـتُ ذاتَ حِمـىٰ بِظِـلِّ مُحمّـدٍ ... لا أخْشَـىٰ مِـن ضَيـمٍ وَكـانَ جمـالَ لِيـا

فـاليـومَ أخشـعُ لِلـذّلِيـلِ وَأتّقـي ... ضَيْمـي وَأدْفَـعُ ظـالِمـي بِـرِدائِيـا

إذا بَكَـتْ قُمْـرِيّـةٌ فـي لَيلِهـا ... شَجَنـاً عَلـىٰ غُصْـنٍ بَكيـتُ صَبـاحِيـا

فـلأجْعَلَـنَّ الحُـزنَ بَعـدَكَ مُـؤنِسـي ... وَلأجْعَلَـنَّ الـدّمْـعَ فِيـكَ وِشـاحِيـا

فَـإذا عَلـىٰ مَـنْ شَـمَّ تُـربـةَ أحمـدٍ ... أنْ لا يَشُـمَّ مَـدىٰ الـزّمـانِ غَـوالِيـا

لماذا بكت فاطمة «عليها السلام» بهذا الشكل؟

لم كلُّ هذا القلق وهذا الاضطراب؟

لماذا عدم الارتياح هذا، كأنها الحرمل علىٰ النار؟

لكن... لماذا؟

لنسمع منها «عليها السلام» جوابها علىٰ هذه التساؤلات.

تقول أم سلمة

بعد وفاة الرسول الكريم «ص» ذهبت لزيارة وتفقد حال سيدة الإسلام

فاطمة الزهراء «عليها السلام» فلخصت لي حالها بهذه الجمل المعبّرة:

أصبحت بين كمدٍ وكرب
فقد النبيِّ «ص» وظلم الوصي
هُتكَ والله حجابه
ولكنها أحقاد بدرية
وتراث أحدية
كانت عليها قلوب النفاق مكتمنة[1].

ورغم ذلك لم يخف علىٰ أحد ما تحملته في سبيل الدفاع عن الحرمة العلوية المقدّسة وحماية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «ع».

فبالرغم من قصر حياتها بعد أبيها «ص»، حيث استجاب الله سبحانه وتعالىٰ دعاءها ولبّت بدورها نداء الباري «عز وجل» لتنتقل إلىٰ جوار ربّها وتسارع لرؤية أبيها «ص»، بالرغم من ذلك فقد بذلت كلَّ ما في وسعها من فداءٍ وتضحيةٍ في الدفاع عن الإسلام والتذكير بحق أمير المؤمنين علي «ع».

صلىٰ الله عليك يا بنت رسول الله ورحمة الله وبركاته.

---

(١) مناقب ابن شهر آشوب ص ٢٢٥.



فضائل الزهراء «عليها السلام»
في نظر الآخرين

يجدر بالذكر هنا أن كل الأحاديث المذكورة في هذا القسم والتي تصل الأربعين حديثاً قد نقلت من مصادر أهل السنّة المشهورة والمعروفة مع ذكر تلك المصادر.



منزلة فاطمة «عليها السلام» علىٰ ألسنة الآخرين

يتبادر إلىٰ ذهن البعض من الذين يجهلون أو يتجاهلون الحقائق أن الفضائل الكريمة المذكورة لأهل بيت النبوّة «عليهم السلام» ومنزلتهم السامية إنّما تعزىٰ إلىٰ حسن ظنٍّ مواليهم وتعلقهم الشديد بآل محمد «ص».

فلأنهم يعشقون آل البيت «عليهم السلام» لذا فهم لا يرون الأمور إلاّ من هذا المنظار، فكل ما يُروىٰ عنهم من فضيلة يؤمن بها الموالي دون أن يعير أهميةً لسندها ومدىٰ صحّته.

ولرفع سوء الظَّنِّ من أولئك البعض، ولزيادة أطمئنان المحبين والموالين فسوف نلجأ إلىٰ مصادر المذاهب الأخرىٰ المشهورة وكتبهم المعروفة لننقل ما جاء فيها من أحاديثٍ وفضائل عن أهل بيت النبوّة.

لقد ذكرنا من قبل فضائل سيدة الإسلام فاطمة الزهراء «عليها السلام» من خلال شرحٍ موجزٍ لحياتها المباركة، وغايتنا في هذا القسم من الكتاب أن ـ نطلع علىٰ المقام المعنوي الرفيع لبنت رسول الله «ص» (ومن خلال كتب أهل السنّة المشهورة) ـ .

وقبل الدخول في صلب هذا البحث، نرىٰ من اللازم أن نذكر بعض النقاط المهمة :

١ ـ من الظريف أن معظم المناقب والفضائل التي ذكرت في كتب الشيعة عن

فاطمة الزهراء «عليها السلام»، قد ذكرها أهل العامة في كتبهم المشهورة أيضاً، إلاّ القليل منها، والتي ذكرت في مصادر الشيعة المعتبرة دون أن ترد في كتب الآخرين.

٢ ـ لم يُنقل في هذا القسم من الكتاب الذي بين يديك أي روايةٍ عن كتب الشيعة، ومن بين الكتب العديدة لأهل العامة، فإنّنا اخترنا كتب الحديث والتأريخ المشهورة والمعتمدة عندهم كليّاً.

٣ ـ من المثير للدهشة، ذلك الطوفان العجيب الذي حلَّ بالأمة الإسلامية بعد وفاة رسول الله «ص» بسبب الخلافة، والذي كانت غايته ونتيجته تغيير محور الخلافة عن آل بيت محمد «ص» إلىٰ أشخاصٍ آخرين، فبعد أن نصَّبهم الله سبحانه وتعالىٰ خلفاءَ للنبيِّ في حياته قام هؤلاء الأشخاص بتنحيتهم عنها والاستيلاء علىٰ كرسيِّ الخلافة بعد وفاته.

إنَّ انزواء أهل البيت «عليهم السلام» سبّب أن قام الحكّام بمحو فضائلهم ومناقبهم، وبالتالي محو ما يُثبت أولويتهم وأحقيتهم بخلافة رسول الله محمد «ص». بالإضافة إلىٰ أنّ تلك الفضائل والمناقب مصدر لحيرة الجميع، فما معنىٰ أن يتصدّىٰ الآخرون لهذا الأمر وأهل بيت النبوة «عليهم السلام» يتمتعون بهذه المنزلة وهذا المقام؟!

لم لا نقدم من قدمه الله تعالىٰ والرسول؟
ولماذا يحرم المسلمون من بحر علوم هؤلاء؟
لماذا. . . ولماذا؟!.

لذا يتضح لنا أن محو أو تجاهل تلك الفضائل كان جزءً من خططهم السياسية. وقد بلغت هذه المسألة أوجها في عصر حكومة «بني أميّة» و «بني العباس»، ولم يكن في السر أو في الخفية بل علناً وأمام الملأ، ولم يكتفوا بمحو فضائل أهل البيت فحسب بل وبدأوا بإثبات فضيلة الآخرين من خلال نشر أحاديث وروايات مجعولةٍ كاذبة، حتىٰ وصل بهم الأمر إلىٰ شراء بعض

الصحابة ـ أو أشباه الصحابة ـ لهذا العمل القبيح، وأجزلوا لهم العطاء.

فلقد رُوي أنَّ معاوية «لم» لسمرة بن جندب مائة ألف درهم حتىٰ يروي أنّ الآيتين الشريفتين التاليتين قد نزلتا في علي بن أبي طالب وهما:

﴿ومِنَ النّاسِ من يُعجِبُكَ قولُهُ في الحياةِ الدّنْيا ويُشهِدَ الله علىٰ ما في قلبِهِ وهوَ ألدُّ الخِصَامِ * وإذا تَولّىٰ سعىٰ في الأرضِ ليُفسِدَ فيها ويُهلِكَ الحرْثَ والنّسلَ والله لا يُحبَّ الفساد﴾[1].

وأنَّ الآية التالية:

﴿ ومِنَ النّاسِ مَن يشري نفسَهُ أبتغاءَ مرضاتِ الله ﴾[2] قد نزلت في عبد الرحمٰن بن ملجَم. فلم يقبل فبذل له مائتي ألف درهم فلم يقبل، فبذل له ثلاثمائة ألف فلم يقبل، فبذل له أربعمائة ألف فقبل وروىٰ ذلك[3].

وبهذا الشكل أصبح ذكر مناقب وفضائل آل البيت «عليهم السلام» ممنوعاً علىٰ المنابر وفي المجالس بل ويُعدُّ جرماً سياسياً في رأي النظام الحاكم، ومن يخالف فقد حلّ عليه غضب النظام، فيسجن في بئرٍ مظلم أو يقطعوا لسانه أو يشدّونه إلىٰ عمود داره.

بعدما جاء معاوية إلىٰ المدينة، امتنع الصحابي والمفسر المعروف «ابن عباس» الذي كانت له مكانةً خاصةً في المجتمع الإسلامي عن ذكر فضائل عليٍّ بن أبي طالب «ع».

قال ابن عباس لمعاوية:

أتمنع قراءة القرآن؟ (يعني أني أتلو الآيات التي وردت في حقِّ علي «ع»).

---

(١) سورة البقرة آية ٢٠٤، ٢٠٥.
(٢) سورة البقرة آية ٢٠٧.
(٣) شرح نهج البلاغة ج٣ ـ ٤ ص ٧٣.

قال: إقرأ القرآن ولكن لا تفسر آياته!.

بمثل هذه الظروف محيت فضائل آل البيت، خصوصاً أنّ صلاة الجمعة والمنابر الأخرىٰ كانت السبيل الوحيد في اجتماع الناس وتوعيتهم أو تضليلهم.

ولكن العجيب أن فضائل ومناقب آل بيت النبي «عليهم السلام» لم تختفِ رغم الجوِّ المشحون الذي صنعه المنافقون وإنّما ملأت كتب الصديق والعدو أيضاً. والأعجب من ذلك أن نشاهد من بين تلك الوثائق التي تدل علىٰ فضائلهم اعترافاتٍ صريحةٍ لأشخاصٍ مثل «معاوية» و«عمرو بن العاص» وبعض الخلفاء المتقدمين يثبتون بها تلك الفضائل والمناقب التي كان يتمتع بها آل البيت، علماً أنّ هذه الاعترافات قد أرّختها أيدي مؤرّخيهم علىٰ صفحات التأريخ!.

وما ذلك إلّا دليل علىٰ مشيئة الله في فضح المنافقين، وإعجازٍ كبيرٍ لأهل بيت العصمة «عليهم السلام».

٤ ـ أظهر الساعون في محو فضائل آل بيت الرسول «عليهم السلام» الكثير من التعصّب، حيث لم يكتفوا بتشويه سمعة أمير المؤمنين علي «ع» وأبنائه الكرام ودرج أسمائهم في القائمة السوداء لأولئك الحاقدين، وإنما سعوا إلىٰ هدم وتحطيم مكانتهم الاجتماعية. والأمر من ذلك أنهم عملوا إلىٰ إلحاق الأذىٰ والإساءة إلىٰ كلِّ من له علاقة بآل بيت محمد «عليهم السلام» أياً كان نوعها.

فلماذا يصر البعض علىٰ رغم الآثار والدلائل التأريخية التي تشير إلىٰ إيمان أبي طالب عم وحامي الرسول «ص» بأنه مات كافراً ومشركاً؟! زاعمين أن الآية الشريفة:

﴿ **وهُمْ يَنْهَون عنه وينؤن عنه** ﴾[1] قد نزلت فيه!

---

(١) سورة الأنعام آية ٢٦ «نقرأ شرحاً مفصّلاً عن هذه التهمة الكبيرة والدلائل التي تشير

لا لشيء سوىٰ أنه والد أمير المؤمنين علي «ع».

ولماذا إصرارهم علىٰ أنّ «أبا ذر الغفاري» ذلك الرجل الشجاع، ذو «مذهبٍ اشتراكي»، حيث يتهمونه في كتبهم بأنّه يحمل عقائداً اشتراكية؟!.

ليس إلا.. كونه من خلّص أصحاب أمير المؤمنين «ع»، ومن المعترضين علىٰ الخليفة الثالث في مسألة إتلاف وهدر مال المسلمين.

وهناك الكثير من مثل هذه التساؤلات.

فيا ترىٰ بعد هذه المعادة، ألا يعجب المرء من وجود كلّ هذه الفضائل والمناقب لآل البيت «عليهم السلام» في كتب مخالفيهم؟ أليس من المعجزة أن تعبر أحاديث تحكي فضائل آل محمد «ص» عصوراً وأزمنة حارب فيها الحكام محبي آل البيت «عليهم السلام» بشتىٰ الطرق، حتىٰ أنهم كانوا يعتبرون تسمية المولود بأسم عليٍّ جرماً لا يُغتفر؟!.

٥ ـ المثير للدهشة أن حذف تلك الفضائل لم يكن منحصراً بالقرون الأولىٰ للإسلام، أو بعصر بني أمية وبني العباس فقط، ففي العصر الحاضر الذي يُسمىٰ بـ «عصر التحقيق التأريخي الدقيق» حيث طبع الكتب الإسلامية، ونشرها في مختلف الدول الإسلامية لذا فإنّ أيّ تغيير أو تحريفٍ أو حذف للحقائق يسبّب فضيحة كبيرة، رغم ذلك نرىٰ «محققون متعصبون»! (إن أمكن جمع التحقيق بوجود التعصّب) قد أنتهجوا نفس أسلوب الأمويين والعباسيين في حذف وتغيير وتحريف الحقائق. مما حدىٰ بالعلامة «الأميني» وهو المحقق الإسلامي الكبير إلىٰ أن يذكر في كتابه «الغدير» بعضاً من النماذج. منها كيف أن المؤرخ المعروف «الطبري» حرّف الحديث المربوط بقصة يوم الدار وتفسير آية ﴿ وأنذر عشيرتكَ الأقربين ﴾ وأستعداد عليٍّ «ع» للوقوف بجانب رسول

إلىٰ بطلانها في المجلّد الخامس من «تفسير نمونه» من ص ١٩١ وما بعدها.

الله «ص» وإعلانه بوصاية ووزارة علي «ع» من بعده، حرف كل ذلك رغم سند الحديث المعتبر عند كلِّ المذاهب.

والأسوأ من ذلك ما فعله «محمد حسين هيكل»، حيث نقل الحديث في الطبعة الأولىٰ ثمَّ حذف القسم الأهم من الحديث في الطبعة التالية[1].

* * *

والآن وكما قلنا آنفاً فإنّنا سنذكر مناقب فاطمة الزهراء «عليها السلام» ومقامها الرفيع من خلال الأحاديث التي نقلتها كتب أهل العامة المشهورة. وكما ذكرنا أيضاً فسوف لن ننقل أي حديثٍ من مصادر وطرق الشيعة (رغم أنها معتبرةً جداً ومن الدرجة الأولىٰ) فنخلي الميدان لأحاديث الآخرين حتىٰ يتبين أن تألق هذه السيدة لا يمكن أن يخفيه الستار الذي ألقاه الحاقدون.

يتمّ التركيز في هذا البحث علىٰ عشر محاور أصليةٍ للسيدة الجليلة، وهي:

١ ـ أفضل نساء العالمين.

٢ ـ سيدة الجنة ـ حوراء الجنة ـ

٣ ـ محبوبة الرسول «ص» وفلذة كبده.

٤ ـ مقربة في الحضرة الإلهية، يرضىٰ الله لرضاها ويغضب لغضبها.

٥ ـ صاحبة التضحية الكبرىٰ والفداء العجيب.

٦ ـ المقام العلمي لفاطمة «عليها السلام».

٧ ـ كرامات سيدة الإسلام «عليها السلام».

٨ ـ أوّل من يدخل الجنة.

٩ ـ أسامي فاطمة «عليها السلام» المجلّلة.

١٠ ـ هدية النبي «ص» لابنته الزهراء «عليها السلام».

---

(١) الغدير ج ٢ ص ٢٨٧ ـ ٢٩٠.

* أفضل نساء العالمين

من الطبيعي أن تختلف منزلة البشر من واحدٍ لآخر. فمنهم من علا بفضيلته علىٰ الملائكة المقربين، ومنهم من هو أحطّ من الحيوانات. وطبقاً لما ينصُّ عليه القرآن ويوصي به الإسلام فإنَّ «العلم والإيمان والتقوىٰ والصفات الإنسانية الفاضلة» هي التي ترفع من مقام الإنسان وقيمته. وبالاستناد إلىٰ هذه المعايير فإن سيدة الإسلام فاطمة الزهراء «عليها السلام» ـ وعلىٰ لسان رسول الله «ص» ـ أفضل نساء العالمين.

لقد ورد في مصادر أهل السنة المعروفة كثيراً من الروايات تنصُّ علىٰ أن فاطمة الزهراء «عليها السلام» أفضل نساء العالمين، حيث تحدث الرسول «ص» بهذه لعدة مراتٍ وبتعابير مختلفة.

* ١ ـ قال «ص»:

«إن أفضل نساء الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمدٍ «ص» ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم»[١].

* ٢ ـ ونقرأ في حديث آخر للرسول «ص» وقد آشتدَّ به المرض قبل وفاته، عند شاهد قلق وآضطراب فاطمة «عليها السلام» قال:

«يا فاطمة ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين، وسيدة نساء هذه الأمة، وسيدة نساء المؤمنين»[٢].

---

(١) مستدرك الصحيحين ج ٢ ص ٤٩٧ مؤكداً علىٰ صحة سند الحديث.

(٢) مستدرك الصحيحين ج ٣ ص ١٥٦ نقل الرّاوي هذا الحديث مؤكّداً علىٰ صحة سنده.

وهنا تظهر أفضلية فاطمة «عليها السلام» المطلقة، حيث لم يورد الرسول «ص» في حديثه اسماً آخر.

* ٣ ـ نقل أبو نعيم الأصبهاني عن جابر بن سمرة. قال: جاء نبيّ الله «ص» فجلس وقال:

إن فاطمة وجعة. فقال القوم: لو عدناها؟.

فقام فمشىٰ حتىٰ أنتهىٰ إلىٰ الباب ـ والباب عليها مصفق ـ قال، فنادىٰ: شُدّي عليك ثيابك فإن القوم جاؤوا يعودونك.

فقالت: يا نبيّ الله ما عليَّ عباءة. قال فأخذ رداءً فرمىٰ به إليها من وراء الباب، فقال: شدّي بهذا رأسك، فدخل ودخل القوم فقعد ساعة فخرجوا، فقال القوم: تالله بنت نبيّنا «ص» علىٰ هذا الحال؟.

قال فألتفت فقال:

«أما إنَّها سيدة النساء يوم القيامة»[1].

* ٤ ـ وبتعبير آخر نقله صحيح[2] البخاري ـ وهو من أشهر مصادر الحديث عند العامة ـ نقلاً عن عائشة أنها قالت:

أقبلت فاطمة «عليها السلام» كأنّ مشيتها مشية رسول الله «ص» فقال: مرحباً بأبنتي ثم أجلسها عن يمينه ثم أسرَّ إليها حديثاً فبكت. فقلت استخصك رسول الله «ص» وأنتِ تبكين ثمَّ أنّه أسرَّ لها فضحكت.

قالت: فقلت لها ما رأيت كاليوم أقرب فرحاً من حزن، ما أسر إليك؟.

فقالت فاطمة «عليها السلام»: ما كنت لأفشي سرّ رسول الله «ص».

حتىٰ إذا قبض الرسول «ص» سألتها، فقالت:

إنّه أسرّ إليّ وقال: كان جبرئيل يعارضني بالقرآن في كلِّ عام مرة وأنّه

---

(١) حلية الأولياء مجلّد ٢ ص ٤٢.

(٢) صحيح البخاري كتاب بدء الخلق.

عارضني به العام مرتين ولا أراه إلاّ قد حضر أجلي وأنك أول أوهلي لحوقاً بي ولنعم السلف أنا لك، فبكيت لذلك فقال أما ترضين أن تكون سيدة نساء أهل الجنة ونساء المؤمنين؟! فذلك الذي أضحكني.

ومن خلال تحقيق هذه الأحاديث يتضح جيداً أنه إذا قيل أنّ فاطمة «عليها السلام» هي واحدة من أربع من النساء الفاضلات، فإن ذلك لا ينافي كونها أفضل تلك النساء الأربع.

ودليلنا علىٰ هذا ما يرويه الحديث التالي:

* ٥ ـ نقل في كتاب «ذخائر العقبىٰ» عن ٱبن عباس أن الرسول الكريم «ص» قال: «أربع نسوةٍ سيدات سادات عالمهنَّ: مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد «ص» وأفضلهن عالماً فاطمة «عليها السلام»[(١)] .

لقد صرّح القرآن قائلاً: أن الملائكة كانت تكلم مريم، كما في الآية الشريفة: «إذ قالت الملائكة يا مريم إنَّ الله ٱصطفاك وطهرك وٱصطفاك علىٰ نساء العالمين»[(٢)] . وقد كلمت مريم الملائكة وهذا ما تنص عليه آية ١٦ إلى آية ٢١ من سورة مريم وينص القرآن علىٰ أنه كان يؤتىٰ لمريم غذاءً من الجنة. حيث نقرأ في الآية الشريفة: ﴿ فتقبّلَها ربُّها بقبولٍ حَسَنٍ وأنْبتَها نباتاً حَسَناً وكَفّلَها زكريّا كُلّما دَخَلَ عَلَيْها زكريّا المِحرابَ وجَدَ عندَها رِزْقاً قالَ يا مَرْيمُ أنّىٰ لَكِ هذا قالت هُوَ مِن عِندَ الله إنَّ الله يرزقُ مَن يَشاءُ بغيرِ حِسابٍ ﴾[(٣)] .

ويصفها في مكانٍ آخر بأنها «صديقة»، كما في الآية الشريفة:

﴿ ما ٱلمَسِيحُ ٱبنُ مَريَمَ إلاّ رَسُولٌ قد خَلَت مِن قبلِهِ الرُّسُلُ وأمُّهُ

(١) ذخائر العقبىٰ ص ٤٤، وأيضاً السيوطي في «درّ المنثور» ذكر هذا الحديث في أسفل آية ٤٢ من سورة آل عمران.

(٢) سورة آل عمران آية ٤٢ كذلك آية ٤٣ و٤٥.

(٣) سورة آل عمران آية ٣٧.

صدّيقة. . . . ﴾[1] .

وغير ذلك من الفضائل للسيدة مريم وباقي النساء الفاضلات كآسية بنت مزاحم، حيث تنص الآية الشريفة :

﴿ وضَرَبَ الله مَثلاً للّذينَ آمنوا أمرَأَتُ فِرعَوْنَ إذْ قالت ربِّ أبْن لي عِندَكَ بيتاً في الجنّةِ ونجّني من فَرعَوْنَ وعَمَلِهِ ونَجِّني مِن القَوْمِ الظّالمين ﴾[2] .

وكذلك المقام الرفيع والفضائل السامية التي خصَّ النبيُّ «ص» بها خديجة «ع».

ومن هذا المنطلق نعرف أنَّ لفاطمة «عليها السلام» مقام عالي أو منزلة رفيعة مكرمة، خصوصاً ما جاء في رواية «الأفضلية» التي تدل علىٰ أنَّ هذه المفاخر والمناقب هي في الواقع جزء مما تتحلىٰ وتتميز به فاطمة «عليها السلام».

---

(١) سورة المائدة آية ٧٥.

(٢) سورة التّحريم آية ١١.

* حوراء الجنة

إن اللبنة الأولىٰ في بناء كيان الإنسان هي انعقاد «النطفة»، لأنها علىٰ أية حالٍ تحمل قسماً مهماً من قيمه الوجودية. لهذا الدليل أوصىٰ الإسلام بالمحافظة علىٰ سلامة هذه اللبنة وصحة تكوينها.

وعندما نطالع تأريخ حياة السيدة الشريفة «عليها السلام» نرىٰ أنها قد امتازت في هذا المجال عن جميع شخصيات العالم رجالاً ونساءً.

ومن الأفضل أن نسمع هذا الحديث من فم رسول الله «ص»:

* ٦ ـ عن ابن عباس قال:
كان النبيُّ «ص» يكثر القبل لفاطمة «ع» فقالت له عائشة:
إنك تكثر تقبيل فاطمة.
فقال «ص»: إنّ جبريل ليلة أسرىٰ بي أدخلني الجنة فأطعمني من جميع ثمارها فصار ماءً في صلبي فحملت خديجة بفاطمة «فإذا اشتقت لتلك الثمار قبلت فاطمة فأصبت من رائحتها جميع تلك الثمار التي أكلتها»[1].

* ٧ ـ وجدير بالذكر أنّ بعض الروايات قد نصت علىٰ فاكهة «التفاح»، كما هو في كتاب «ذخائر العقبىٰ»، حيث ينقل «الطبري» حديثاً للرسول «ص» عن جمع من الصحابة أنه «ص» قال: «لما أُسري بي أدخلني جبريل الجنة فناولني تفاحةً فأكلتها فصارت نطفةً في ظهري فلما نزلت من السماء واقعت خديجة، ففاطمة من تلك النطفة كلما اشتقت إلىٰ تلك التفاحة قبلتها»[2].

---

(١) ذخائر العقبىٰ ص ٣٦.
(٢) ذخائر العقبىٰ ص ٣٦.

* ٨ ـ وقد نقل في حديث آخر أن الرسول «ص» قد تناول فاكهة «السفرجل» عند مروره بالجنة ليلة المعراج. جاء ذلك في «مستدرك الصحيحين» نقلاً عن «سعد بن مالك»[١] .

* ٩ ـ وجاء في حديثٍ آخر أن الفاكهة التي تناولها الرسول «ص» كانت غير معروفةٍ لأهل الدنيا، كما أنها كانت لذيذةً ونكهةً وجذابة. حيث نقل «السيوطي» في «الدرّ المنثور» عن الرسول «ص» أنه قال:

لما أُسرىٰ بي إلىٰ السماء أُدخلت الجنة فوقفت علىٰ شجرةٍ من أشجار الجنة لم أر في الجنة أحسن منها ولا أبيض ورقاً ولا أطيب ثمرةً، فتناولت من ثمرتها، فأكلتها فصارت نطفة في صلبي، فلما هبطت إلىٰ الأرض واقعت خديجة، فحملت بفاطمة، فإذا أنا آشتقت إلىٰ ريح الجنة شممت ريح فاطمة «عليها السلام»[٢] .

وفي الواقع فإنّ الحديث الأول في هذا الفصل يحوي ويفسر مجموع هذه الأحاديث، فطبقاً لما جاء فيه فإن الرسول «ص» قد تناول من جميع فواكه الجنة وأنَّ نطفة فاطمة «عليها السلام» قد آنعقدت من عصارة تلك الثمار. هذا مع الأخذ بنظر الاعتبار أن الدنيا التي نعيشها تختلف عن عالم الجنة بقدرٍ تعجز معه ألفاظنا عن تبيان حقائقها، ولما نذكره عنها ما هو إلاّ إشارات مختصرة لما تتمتع بها.

علىٰ كلِّ حال فإن حوراءَ من الجنة تتحلىٰ بدم وشكل أهل الجنة، لا بد وأن تكون نطفتها من عصارة فاكهة الجنة، وهذا ما آمتازت به هذه السيدة عن باقي نساء العالمين.

كانت من نساء الجنة، نفسها وخلقتها، قلبها وروحها، لونها وهيئتها،

---

(١) مستدرك الصحيحين ج ٣ ص ١٥٦.

(٢) «السيوطي» في «الدّر المنثور» في تفسير آية ﴿ سبحانَ الذي أسرىٰ بعبده ﴾ ـ سورة الإسراء آية ١.

قولها وحديثها، وغير ذلك من صفات وميزات أهل الجنة، وخلاصة القول أنها «عليها السلام» من الجنة من مفرق رأسها إلىٰ أطراف قدميها.

فهل يا ترىٰ أن دُوِّنَ في تأريخ حياة شخصٍ آخر مثلما رُوِيَ ودُوِّنَ في تأريخ حياة هذه السيدة؟.

فاطمة «عليها السلام» أحب الناس إلىٰ الرسول الكريم «ص»

الحب والعشق، أقوىٰ ما يربط بين موجودين.

ينص قانون جاذبية المواد المعروف علىٰ أنّ ـ كلما كبرت الأجسام وتقاربت زادت قوة الجذب بينها ـ . ويسري حكم هذا القانون في العالم المعنوي والعشق الإلهي أيضاً. فكلما سمت قيمة الأشخاص وتقاربت نفوسها زادت علاقة الحب والعشق بينها!.

مع وجود آختلافٍ بسيطٍ يختص به عالم المادة، فأحياناً يولد الاختلاف والتضاد تجاذباً بين الجسمين (كما في التجاذب الحاصل بين الشحنتين الموجبة والسالبة)، علىٰ خلاف ما يحدث في عالم الأرواح حيث تقوىٰ رابطة الجذب كلما زاد الشبه فيما بينها، وتضعف إذا ما وجد التضاد والاختلاف.

نتجه بعد هذه المقدمة القصيرة صوب عالم الأحاديث، لنتعرف علىٰ مدىٰ علاقة الرسول الكريم «ص» بأبنته فاطمة الزهراء «عليها السلام»، وإلىٰ أيّ مقدارٍ كان يحبها؟.

* ١٠ ـ يُروىٰ عن عائشة أنها قالت:

«ما رأيت أحداً أشبه كلاماً وحديثاً من فاطمة برسول الله «ص» وكانت إذا دخلت عليه رحبت بها، وقام إليها، فأخذ بيدها فقبلها، وأجلسها في مجلسه»[١].

---

(١) مستدرك الصحيحين ج ٣ ص ١٥٤.

* ١١ ـ وجاء في روايةٍ أخرىٰ:
«كان كثيراً ما يقبل عرف فاطمة»[١] .

* ١٢ ـ وتنص رواية ثالثة علىٰ:
«كان كثيراً ما يقبلها في فمها»[٢] .

* ١٣ ـ لقد كان الرسول «ص» يُظهر الكثير من محبته لفاطمة «عليها السلام» حتىٰ أثار ذلك حفيظة عائشة، حيث قالت لرسول الله «ص»:

«يا رسول الله مالك إذا جاءت فاطمة قبلتها حتىٰ تجعل لسانك في فيها كله كأنك تريد أن تلعق عسلاً؟!.

قال «ص»: نعم يا عائشة، إني لما أُسري بي إلىٰ السماء.... وقصَّ عليها قصة ثمار الجنة التي تناولها»[٣] .

* ١٤ ـ وجاء في صحيح أبي داوود

«كان رسول الله «ص» إذا سافر كان آخر عهده بإنسانٍ من أهله فاطمة «عليها السلام» وأول من يدخل عليه إذا قدم فاطمة «عليها السلام»[٤] .

كما نقل «أحمد بن حنبل» هذه الرواية في مسنده[٥] .

لكن نعلم أن للحب والحنان الواقعيين طرفان، فالحنان المطلق له جانب سلبي، ويكون سطحياً عديم القيمة، وكما أسلفنا فإن العشق الواقعي دليل علىٰ التشابه، وعندما يحصل التشابه ستتولد الجاذبية بين الطرفين.

---

(١) كنز العمّال ج ٧ ص ١١١.
(٢) فيض الغدير ص ١٧٦.
(٣) تاريخ بغداد ج ٥ ص ٨٧.
(٤) صحيح أبي داود ج ٢٦ باب ما جاء في الانتفاع بالعاج.
(٥) مسند أحمد بن حنبل ج ٦ ص ٢٨٢.

لذا فإن الروايات الإسلامية تعكس حقيقةً مهمة. ألا وهي أن العلاقة التي كانت تربط الرسول «ص» بأبنته فاطمة الزهراء «عليها السلام» كانت علاقة متبادلة وبنفس الشدة. وإليك شواهد ما أشرنا إليه:

* ١٥ ـ نقرأ في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر بن محمد بن أبان الجعفي، بينما رسول الله «ص» يصلي عند البيت وأبو جهل وأصحابه له جلوس وقد نحرت جزور بالأمس فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلىٰ سلا جزور بني فلان فيأخذه فيضعه في كتفي محمد إذا سجد، فأنبعث أشقىٰ القوم فأخذه فلما سجد النبي «ص» وضعه بين كتفيه، قال فأستضحكوا وجعل بعضهم يميل إلىٰ بعضٍ وأنا قائم أنظر لو كانت لي منعة طرحته عن ظهر رسول الله «ص»، والنبي «ص» ساجد ما يرفع رأسه حتىٰ أنطلق إنسان فأخبر فاطمة فجاءت وهي جويرية فطرحته عنه ثم أقبلت عليهم تشتمهم فلما قضىٰ النبي «ص» صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم، وكان إذا دعا دعا ثلاثاً وإذا سأل سأل ثلاثاً ثم قال اللّهمَّ عليك بقريش ثلاث مرات فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك وخافوا دعوته ثم قال: اللّهمَّ عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط. فوالذي بعث محمداً «ص» بالحق لقد رأيت الذي سمىٰ صرعىٰ يوم بدرٍ ثم سحبوا إلىٰ القليب قليب بدر»[1].

نعم، لقد كانت الزهراء «عليها السلام» منذ صغرها خليطاً من «المحبة» و«الشجاعة»، وهي دائماً علىٰ أهبة الاستعداد في الدفاع عن أبيها «ص».

* ١٦ ـ ونطالع أيضاً في نفس المصدر السابق عن أحداث غزوة أحد ما يأتي:

---

(١) صحيح مسلم «كتاب الجهاد والسيّر» وصحيح البخاري «كتاب بدأ الخلق باب ما لقىٰ النبيّ وأصحابه من المشركين».

«قال سهل بن سعد: جرح وجه رسول الله «ص» وكسرت رباعيته وهشمت البيضة علىٰ رأسه فكانت فاطمة بنت رسول الله «ص» تغسل الدم وكان عليٌّ بن أبي طالب يسكب عليها بالمجن فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلاّ كثرة، أخذت قطعة حصيرٍ فأحرقته حتىٰ صار رماداً ثم ألصقته بالجرح فأستمسك الدم»[1] .

* ١٧ ـ نقل «أبو نعيم الأصفهاني» في «حلية الأولياء» عن عليّ بن محمد بن إسماعيل عن . . . . عن أبي ثعلبة الخشني أنه قال: قدم رسول الله «ص» من غزاةٍ له فدخل المسجد فصلىٰ فيه ركعتين ـ وكان يعجبه إذا قدم أن يدخل المسجد فيصلي فيه ركعتين ـ ثم خرج فأتىٰ فاطمة «عليها السلام» فبدأ بها قبل بيوت أزواجه فأستقبلته فاطمة «عليها السلام» وجعلت تقبل وجهه وعينيه وتبكي.

فقال لها رسول الله «ص»: ما يبكيك؟ قالت: أراك قد شحب لونك. فقال لها: يا فاطمة، إنّ الله عزّ وجلّ بعث أباكِ بأمرٍ لم يبقَ علىٰ ظهر الأرض بيت مدرٍ ولا شعر إلا أدخله به عزاً أو ذُلاً يبلغ حيث بلغ الليل»[2] .

* ١٨ ـ وروي فيما روي عن أحداث الخندق عن عليٍّ «ع» في حفر الخندق إذ جاءته فاطمة بكسرةٍ من خبزٍ فرفعتها إليه فقال ما هذه يا فاطمة، قالت: من قرصٍ اختبزته لابنيَّ جئتك منه بهذه الكسرة. فقال: يا بنية أما أنها لأول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاث[3] .

ما أعظم قوىٰ الجذب التي تربط بين هذا الأب وأبنته؟.

جاذبية متأصلة في أعماق روحيهما، ومحبة قد ارتشفت من منبع

---

(١) صحيح مسلم «كتاب الجهاد والسير» وصحيح البخاري «كتاب بدأ الخلق باب ما لقىٰ النبيّ وأصحابه من المشركين».
(٢) حلية الأولياء ج ٢ ص ٣٠.
(٣) ذخائر العقبىٰ ص ٤٧.

وجودهما، وعلاقة عشقٍ تمخض عنها اتحاد روح الأب بروح ٱبنته في الملكوت الأعلىٰ.

فهل هناك أفضل من هذا الافتخار لفاطمة الزهراء «عليها السلام»؟.

فخر وفضيلة لم تكن لأي أحدٍ عبر تأريخ الإسلام سوىٰ علي ٱبن أبي طالب «ع».

* مقام فاطمة «عليها السلام» المقرب في الحضرة الإلهية

الفناء هو أعلىٰ مراتب القرب من الله «سبحانه وتعالىٰ».

«الفناء» يعني تجاهل ونسيان كل شي، وكل ذي نفس، بل وحتىٰ الذات في مقابل الخالق الجبار. أي أن يصلَ المرء إلىٰ مرحلةٍ لا يرىٰ فيها الوجود الدنيوي إلّا سراباً، ولا يشاهد هذا العالم المخلوق إلا كظلٍّ خفيف اللون يقترب زواله بعد كل لحظة.

يرىٰ الله في كل مكان، ويبحث عنه في كلِّ مكان.

كالفراشة التي تدور حول شمعةٍ تحترق، يصهر ذاته في وجود الله، فلا يرىٰ قيمةً لكيانه في حضرة الإله.

يعد «التسليم المطلق» لإرادة الله «سبحانه وتعالىٰ» واحداً من الآثار المترتبة علىٰ وصول المرء لهذا المقام، فما يريده الله هو المراد، وما يحبه هو الأصلح.

فرضاه من رضا الله، ورضا الله من رضاه.

وبهذه المعايير العرفانية نتوجه صوب المقام العرفاني لسيدة نساء العالمين ونتعرف علىٰ مدىٰ سمو منزلتها في الحضرة الإلهية ونطلع علىٰ الحقيقة التي أشار إليها رسول الإسلام الكريم «ص».

* ١٩ ـ نصَّت الكتب المعروفة لأهل السنة علىٰ الكثير من الروايات التي تشير إلىٰ أن الرسول «ص» قال لابنته فاطمة الزهراء «عليها السلام»:

«إن الله يغضب لغضبك ويرضىٰ لرضاك»[1] .

* ٢٠ ـ نقرأ في «صحيح البخاري» الذي يعد من أشهر مصادر الحديث عند الجماعة أن الرسول «ص» قال:

«فاطمة بضعة مني فمن أغضبها فقد أغضبني»[2] .

* ٢١ ـ ونطالع في مكانٍ آخر من نفس المصدر هذا الحديث:
قال رسول الله «ص»:
«فإنما هي فاطمة بضعة مني يريبني ما أرابها ويؤذيني ما آذاها»[3] .

وكما أشرنا سابقاً فإنَّ الأحاديث كثيرة في هذا المجال، وكلها تحكي عن المقام العالي لفاطمة الزهراء «عليها السلام» في معرفة الخالق وعن درجة عصمتها وإيمانها وإخلاصها. فقد سمت بمقامها إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ حتىٰ صار رضاها وغضبها مرآةً لرضا وسخط الله ورسوله، ولا يمكن أن تعادل هذه الدرجة السامية بأي شيء.

* ٢٢ ـ وننهي بحثنا هذا بحديثٍ آخر ينقله لنا «صحيح الترمذي». فقد قال رسول الله «ص»: «إنما فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها وينصبني ما نصبها»[4] .

من البديهي أنه لا يمكن توجيه ـ أو تحديد ـ ظاهرة الحنان التي تربط الوالد بولده، إضافةً إلىٰ أن النبيّ «ص» بعنوانه «رسول الله» فإنه لا يريد إلاّ ما

---

(١) مستدرك الصحيحين ج ٣ ص ١٥٣ . كما نقل هذا الحديث «ابن حجر» في «الإصابة» و «ابن الأثير» في «أسد الغابة».

(٢) صحيح البخاري «كتاب بدأ الخلق» باب مناقب قرابة رسول الله.

(٣) صحيح البخاري «كتاب النكاح» باب ذبّ الرّجل عن أبنته ـ ورد مضمون هٰذين الحديثين في كتبٍ كثيرةٍ معروفة مثل «خصائص النسائي»، «فيض الغدير»، «كنز العمّال»، «مسند أحمد»، «صحيح أبي داوود» و «حلية الأولياء».

(٤) صحيح الترمذي ج ٢ ص ٣١٩.

أراد الله، وأن رضا وسعادة فاطمة «عليها السلام» من رضا الله ورسوله ما هو إلّا دليل علىٰ صهر إرادتها فيما يريده الله ويرضاه.

لا بد من الإشارة هنا إلىٰ نقطةٍ مهمة، وهي أن فسر البعض جملة «فاطمة بضعة مني» علىٰ أنها جزء من جسد الرسول «ص»، في الوقت الذي يدل مفهوم الحديث علىٰ أن فاطمة «عليها السلام» جزء من كيان ووجود أبيها محمد «ص» ومن الناحيتين المادية ـ الجسمية ـ والروحية. وهذا ما ستشير إليه الروايات التي سنستعرضها إنشاء الله تعالىٰ.

* زهد وإيثار فاطمة «عليها السلام»:

«حب الدنيا رأس كل خطيئة».

بالاستناد إلىٰ الحديث النبوي الشريف وإلىٰ ما تمخضت عنه تجاربنا ومشاهداتنا في الحياة فإنَّ كلَّ التجاوزات، الجنايات، الأكاذيب، الخيانات، الظلم كانت نتيجة لحب «المال» و «الجاه» و «الشهوة»، هنا يتضح أن الزهد والصدق هما أساس التقوىٰ والطهارة والصلاح.

ولكن يجب معرفة ماهية الزهد، فالزهد لا يعني ترك الدنيا والانزواء في عالم الرهبنة والاعتزال عن المجتمع، بل أن حقيقة الزهد هي الحرية وعدم الوقوع في شراك الدنيا.

الزاهد هو الذي لم يتعلق قلبه بالدنيا وهي في اختياره، فلو أحس يوماً بأن رضا الله سبحانه وتعالىٰ منوط بتركه لما في يديه كان مستعداً لهذا العمل، ويقول من أعماقه:

ـ أعطِ العالمين للعدو ونبقىٰ أصدقاء ـ. وإذا أستدعىٰ الحفاظ علىٰ الحرية والشرف والإيمان أن يضحي بحياته وروحه وماله لم يتوانَ في ذلك ويصرخ من أعماقه ـ هيهات منا الذلة ـ.

وعلىٰ حد قول القرآن الكريم في تعريفه للزاهد:

«لكيلا تأسوا علىٰ ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم»[1].

بعد هذه المقدمة القصيرة نتوجه إلىٰ أحاديث رسول الله «ص» ونتعرّف من خلالها علىٰ وجهة نظره بشخصية فاطمة «عليها السلام».

---

(١) سورة الحديد آية ٢٣.

* ٢٣ ـ نقل «ابن حجر» وآخرون في روايةٍ عن الرسول «ص»:

«أخرج أحمد وغيره ما حاصله أنه «ص» كان إذا قدم من سفر أتىٰ فاطمة وأطال المكث عندها ففي مرة صنعت لها مسكين من ورق وقلادة وقرطين وستر باب بيتها فقدم «ص» ودخل عليها ثم خرج وقد عرف الغضب في وجهه حتىٰ جلس علىٰ المنبر فظنت أنه إنّما فعل ذلك لما رأىٰ ما صنعته فأرسلت به إليه ليجعله في سبيل الله، فقال فعلت فداها أبوها ثلاث مرات، ليست الدنيا من محمدٍ ولا من آل محمدٍ ولو كانت الدنيا تعدل عند الله في الخير جناح بعوضة ما سقىٰ منها كافراً شربة ماء، ثم قام فدخل «ص» عليها»[1].

من الواضح أن يكون ثمن السوارين والقرطين الفضيين والعقد الفضي زهيداً، والأزهد ثمناً منها ذلك الستار الذي يعلقه الإنسان علىٰ باب الغرفة، غير أن الرسول «ص» كان يعتبر أن ذلك ليس من شأن فاطمة «عليها السلام»، بل يرىٰ أن فضيلتها وافتخارها يكمن في خصالها الإنسانية.

تعلمت فاطمة «عليها السلام» هذا الدرس من أبيها مباشرةٍ، حيث رمت بالدنيا وزخرفها جانباً محرّرة نفسها من ذلك الأسر من ناحية وأنفقت ما في يدها في سبيل الله من ناحيةٍ أخرىٰ. لقد عرفنا من خلال الحديث الذي سبق ذكره ـ برقم ٣ ـ نقلاً عن كتاب «حلية الأولياء» لم تكن تملك الحجاب الكافي عند مجيء الرسول «ص» وأصحابه لعيادتها، مما حدا به «ص» أن يناولها عباءته لتستر نفسها وتستعد للضيوف الذين جاؤوا لعيادتها.

إنّ جهاز فاطمة «عليها السلام» ومراسم الزفاف التي جرت بمنتهىٰ البساطة، وتفانيها في خدمة عائلتها، حيث تحضن طفلها في إحدىٰ يديها وفي الأخرىٰ تطحن الشعير لتهيء لهم الخبز، كل ذلك شواهد صادقة علىٰ زهدها العالي وإيمانها الصادق. ويشير الحديث التالي إلىٰ هذا المعنىٰ:

---

(١) الصواعق المحرقة ص ١٨٢.

* ٢٤ ـ نقل أبو نعيم الأصفهاني في «حلية الأولياء»:
«لقد طحنت فاطمة بنت رسول الله «ص» حتىٰ مجلت يدها وربا، وأثر قطب الرحىٰ في يدها»[١].

* ٢٥ ـ نقل في «مسند أحمد» وهو أحد أشهر مصادر أهل السنة عن «أنس بن مالك» أنه قال:
إن بلالاً بطأ عن صلاة الصبح فقال له النبي «ص» ما حبسك فقال: مررت بفاطمة وهي تطحن والصبي يبكي فقلت لها إن شئت كفيتك الرحا وكفيتيني الصبي وإن شئت كفيتك الصبيَّ وكفيتيني الرحا فقالت أنا أرفق بأبني منك. فذاك حبسني. فقال رسول الله «ص»:
«فرحمتها يرحمك الله»[٢].

من الفضائل الأخلاقية التي تتحلىٰ بها سيدة الإسلام هي الشجاعة والشهامة في دفاعها عن أبيها الرسول الكريم «ص» ضد مشركي مكة، كما أن مجيئها إلىٰ ميدان أُحُدٍ وتضميدها جراح الرسول «ص» لم يكن ليخف عن أي أحدٌ، وهذا ما أثبتته الأحاديث التي ذكرناها آنفاً.

لقد سارت علىٰ طريق العبودية وعبادة الله منذ ولادتها، وهي علىٰ هذا الحال إلىٰ أن فارقت روحها الحياة. والحديث الآتي يدل علىٰ هذا المعنىٰ.

* ٢٦ ـ نقرأ في «ذخائر العقبي» ما جاء في قصة ولادة فاطمة الزهراء «عليها السلام» وأنعقاد نطفتها من ثمار الجنة وحضور النساء الأربع عند ولادتها: «فولدت فاطمة «عليها السلام» فوقعت حين وقعت علىٰ الأرض ساجدة»[٣].

---

(١) حلية الأولياء ج ٢ ص ٤١.
(٢) مسند أحمد ج ٣ ص ١٥٠.
(٣) ذخائر العقبىٰ ص ٤٤.

* ٢٧ ـ ونطالع في نفس المصدر روايةً تدلُّ علىٰ سمو عفتها، حيث تنقل «أسماء بنت عميس» هذه القصة العجيبة:

قالت فاطمة «عليها السلام» لأسماء بنت عميس يا أسماء إني أستقبحت ما يصنع بالنساء إنه يطرح علىٰ المرأة الثوب فيصفها وقالت أسماء: يا أبنة رسول الله ألا أُريك شيئاً رأيته بأرض الحبشة، فدعت بجرائد رطبة فحنتها ثم طرحت عليها ثوباً، فقالت فاطمة «عليها السلام» ما أحسن هذا وأجمله، تعرف به المرأة من الرجل فإذا أنا مت فأغسليني أنتِ وعلي ولا يدخل عليَّ أحد.

وجاء في نهاية هذا الحديث:

إن فاطمة «عليها السلام» لما رأت النعش تبسمت وما رُؤيت مبتسمةً يعني بعد النبي «ص» إلىٰ يومئذ[1].

(١) ذخائر العقبىٰ ص ٥٣.

* المقام العلمي لفاطمة «عليها السلام»

إنّ حب أولياء الله لشخصٍ دون الآخر ليس حبّاً عاديّاً، فلا بد أن يكون قائماً علىٰ أسس مهمةٍ منها العلم والإيمان والتقوىٰ. وما علاقة الرسول الكريم «ص» القوية بأبنته فاطمة الزهراء «عليها السلام» إلاّ دليل علىٰ تمتعها بتلك الصفات الفاضلة. إضافةً إلىٰ ذلك، وعندما يقول «ص»: «فاطمة أفضل نساء العالمين» أو «أفضل نساء الجنة» والتي ذكرنا أسانيدها من قبل، فإنّ هذا بحدٍّ ذاته دليل علىٰ أنّها أعلم نساء العالمين.

وبعد ذلك هل يمكن لشخصٍ لم يصل إلىٰ مقام رفيعٍ في العلم والمعرفة أن يكون رضاه من رضا الله، وغضبه من غضبَ الخالق ورسوله؟ كما تبين لنا ذلك في الروايات السابقة.

علاوةً علىٰ ذلك فقد وردت في المصادر الإسلامية المعروفة روايات مهمةٌ ترفع الستار عن المقام العلمي الرفيع لهذه السيدة الجليلة.

* ٢٨ ـ نقل «أبو نعيم الأصفهاني عن رسول الله «ص» أنه قال لجمعٍ من الحاضرين: ما خير النساء؟.

فلم يدرِ الحاضرون ما يقولون، فسار عليٌّ «ع» إلىٰ فاطمة فأخبرها بذلك.

فقالت: فهلّا قلت له خير لهنَّ أن لا يرين الرجال ولا يرونهن. فرجع علي «ع» فأخبره بذلك.

فقال رسول الله «ص»: من علمك هذا؟ قال: فاطمة «عليها السلام»

فقال رسول الله «ص»: إنّها بضعة مني[1].

يظهر من هذا الحديث أن رغم ما كان يتمتع به أمير المؤمنين علي «ع» من مقام عظيم في العلوم والمعارف التي أعترف الصديق والعدو بذلك، ورغم أنّه باب مدينة علم الرسول الأكرم «ص» إلاّ أنه كان يستفيد أحياناً من علم زوجته فاطمة الزهراء «عليها السلام».

إنّ ما ذكر في نهاية هذه الرواية من أن رسول الله «ص» قال «فاطمة بضعة مني» إنما يشير إلىٰ حقيقةٍ مهمة وهي أن القصد من «بضعة» لا يقتصر علىٰ كونها جزء من بدنه فقط كما فسره البعض، بل هي جزء من روح الرسول «ص» وإيمانه وعلمه وفضله وأخلاقه، فهي شعاع من تلك الشمس وشعلة من تلك المشكاة.

* ٢٩ ـ جاء في «مسند أحمد» عن «أم سلمة» ـ أو طبعاً لرواية أم سلمىٰ ـ أنّها قالت: اشتكت فاطمة شكواها التي قبضت فيه فكنت أمرضها فأصبحت يوماً كأمثل ما رأيتها في شكواها تلك قالت وخرج عليٌّ لبعض حاجته فقالت يا أمَه أسكبي لي غسلاً فسكبت لها غسلاً فأغتسلت كأحسن ما رأيتها تغتسل، ثم قالت يا أمَه أعطيني ثيابي الجدد فأعطيتها فلبستها ثم قالت يا أمَه قدّمي لي فراشي وسط البيت ففعلت وأضطجعت وأستقبلت القبلة وجعلت يدها تحت خدها ثم قالت يا أمَه إني مقبوضة الآن وقد تطهرت فلا يكشفني أحد فقبضت مكانها. قالت فجاء عليٌّ فأخبرته[2].

نستدل من هذه الرواية أن فاطمة الزهراء «عليها السلام» كانت تعلم بوقت وفاتها، حيث أستعدت للرحيل دون أن تظهر عليها علاماته، ومن منطلق أن الإنسان لا يعلم بحلول أجله إلاّ بعلمٍ إلهي، لذا فإنّ الله سبحانه

---

(١) حلية الأولياء ج ٢ ص ٤٠.

(٢) مسند أحمد ج ٦ ص ٤٦١ وأورد هذا الحديث «ابن الأثير» في أسد الغابة» كما رواه جمع آخر من الكتّاب والرّواة.

وتعالىٰ كان يلهم فاطمة «عليها السلام». نعم، فقد أرتبطت روحها بعالم الغيب، وحدثتها ملائكة السماء.

وطبقاً لما جاءت به الروايات فإنّها أفضل من مريم بنت عمران «أم عيسىٰ ـ ع ـ »، وفي هذا الكفاية، إضافةً إلىٰ تصريح القرآن المجيد في أن الملائكة قد تحدثت إلىٰ مريم وهي قد حدثتها ـ ذكرت ذلك آيات من سورة آل عمران وسورة مريم ـ.

لذا فمن الأولىٰ أن تكون فاطمة «عليها السلام» وهي أبنة رسول الله «ص» قد تحدّثت معها ملائكة السماء[1] .

---

(١) يوجد في الروايات التي روتها الشيعة الوفير من الدلائل التي تدلّ علىٰ سعة علمها ومعرفتها، وقد ذكرنا قسماً منها في الفصول التي تحدثنا بها عن حياتها.

* كرامات فاطمة «عليها السلام»

عندما تقوىٰ روح الإنسان، وتمتلىٔ بالصفات الإلهية، وينال منزلة القرب من الله، فإن إرادته (بمشيئة الله) ستؤثر في العالم التكويني وسيحدث له ما يريد. وهذه هي الولاية التكوينية التي تمتع بها أولياء الله، وهي منبع كراماتهم المختلفة التي تميز الأنبياء «عليهم السلام» بأعلىٰ مراتبها وهي المعجزات.

ولقد حبىٰ الله فاطمة الزهراء «عليها السلام» بمقدارٍ كبيرٍ من تلك العناية الإلهية. وهذا ما تدلُّ عليه الرواية التالية:

* ٣٠ ـ نقل كثير من مفسري أهل السنّة منهم «الزمخشري» في «الكشاف» و «السيوطي» في «الدرّ المنثور» في أسفل الآية الشريفة:

﴿ **كُلّما دَخَل علَيْها زَكرِيّا المِحْرابَ وَجدَ عِندَها رِزْقاً قالَ أنّىٰ لَكِ هذا قالت هُوَ مِن عندِ الله إنّ الله يرزقُ مَن يَشاءُ بغير حسابْ** ﴾[1] عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنّه قال:

أقام رسول الله «ص» أيّاماً لم يطعم طعاماً حتىٰ شقَّ ذلك عليه فطاف في منازل أزواجه فلم يجد عند واحدةٍ منهنَّ شيئاً فأتىٰ فاطمة «عليها السلام» فقال يا بُنية هل عندك شيء آكله فإني جائع فقالت لا والله فلما خرج من عندها بعثت إليها جارةٌ لها برغيفين وقطعة لحم فأخذته منها فوضعته في جفنة لها وقالت والله لأؤثرن بهذا رسول الله «ص» علىٰ نفسي ومن عندي وكانوا جميعاً محتاجين إلىٰ شبعة طعام فبعثت حسناً أو حسيناً إلىٰ رسول الله «ص» فرجع

(١) سورة آل عمران آية ٣٧.

إليها فقالت له بأبي أنت وأمي قد أتىٰ الله بشيء قد خبأته لك فقال هلمي يا بنية بالجفنة فكشفت عن الجفنة فإذا هي مملوءة خبزاً ولحماً فلما نظرت إليها بهتت وعرفت أنها بركة من الله فحمدت الله تعالىٰ وقدمته إلىٰ النبي «ص» فلما رآه حمد الله وقال من أين لك هذا يا بنية قالت يا أبتِ هو من عند الله إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب فحمد الله ثم قال الحمد لله الذي جعلك شبيهة سيدة نساء بني إسرائيل فإنها كانت إذا رزقها الله رزقاً فسئلت عنه قالت هو من عند الله إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب .

ويضيف الزمخشري :

ثم جمع رسول الله «ص» علي بن أبي طالب «ع» والحسن والحسين «ع» وجميع أهل بيته فأكلوا عليه حتىٰ شبعوا وبقىٰ الطعام كما هو ، فأوسعت فاطمة «عليها السلام» علىٰ جيرانها[1] .

(١) الزمخشري في ذيل آية ٣٧ من سورة آل عمران وكذلك السيوطي في الدر المنثور ، والثعلبي في قصص الأنبياء ص ـ ٥١٣ .

* أول من يرد الجنة:

إنّ سعادة المرء الواقعية تكمن في دخوله الجنة، حيث الرحمة الإلهية الواسعة، وأفضل الناس من سبق إليها.

وقد ثبت من خلال روايات أهل السنّة المعروفة أنّ الرسول «ص» نسب هذا الافتخار إلىٰ فاطمة الزهراء «عليها السلام» ولعدة مرّات.

* ٣١ ـ جاء في «ميزان الاعتدال» للذهبي نقلاً عن الرسول الكريم «ص»: «أوّل شخصٍ يدخل الجنة فاطمة «عليها السلام»[١] !.

* ٣٢ ـ ونقل عنه «ص» في حديثٍ آخرٍ أنّه قال:
«أوّل شخصٍ يدخل الجنة فاطمة بنت محمد «ص» ومثلها في هذه الأمة مثل مريمٍ في بني إسرائيل»[٢] .

نستدل من الروايات الإسلامية المعروفة علىٰ أن ورودها إلىٰ ساحة المحشر، ومنها إلىٰ الجنة سيكون مصحوباً بمراسم وتشريفاتٍ مجللة، مما يدل علىٰ سمو منزلتها وعظم مقامها.

* ٣٣ ـ نقل عليّ بن أبي طالب عن رسول الله «ص» أنه قال:
«تحشر ابنتي فاطمة يوم القيامة وعليها حلة الكرامة قد عجنت بماء الحيوان، فتنظر إليها الخلائق فيتعجبون منها».

ويضيف «ص» في آخر الحديث:
«فتزف إلى الجنة كالعروس لها سبعون ألف جاريةٍ»[٣] .

* ٣٤ ـ وتروي عائشة حديثاً آخر عن الرسول الكريم «ص»:

---

(١) ميزان الاعتدال ج ٢ ص ١٣١.
(٢) كنز العمّال جُ ٦ ص ٢١٩.
(٣) ذخائر العقبىٰ ص ٤٨.

«إذا كان يوم القيامة نادىٰ منادٍ يا معشر الخلائق طأطؤا رؤسكم حتىٰ تجوز فاطمة بنت محمد»[1] .

* ٣٥ ـ ونقرأ في حديثٍ آخر يشير إلىٰ نفس المعنىٰ :

«فتمر مع سبعين ألف جاريةٍ من الحور العين كمرِّ البراق»[2] .

* ٣٦ ـ والأعجب من ذلك ما نقله كتاب «تأريخ بغداد» عن الرسول الكريم «ص» أنه قال: عندما أُعرج بي إلىٰ السماء في تلك الليلة رأيت باب الجنة وقد كتب عليها :

«لا إله إلا الله، محمد رسول الله، علي حبيب الله، والحسن والحسين صفوة الله وفاطمة خيرة الله، علىٰ باغضهم لعنة الله»[3] .

* أسامي فاطمة «عليها السلام» المجللة

تكشف الأسماء عادةً عن ماهية المسمىٰ، خصوصاً إذا كان واضع الاسم حكيماً، ونستشف من مجموع الأحاديث أن تسمية هذه السيدة الجليلة كانت بواسطة حكيم الحكماء المطلق ألا وهو ربُّ العالمين «جلّ وعلا» .

ومن ناحيةٍ أخرىٰ فإن فاطمة علىٰ وزن «فطم» (علىٰ وزن فعل) وهو بمعنىٰ انقطاع الطفل عن الرضاعة، ثم أُطلق علىٰ كلٍّ ما يحمل معنىٰ الانفصال .

والآن لنتعرف علىٰ ما جاء في الروايات الإسلامية؟ .

* ٣٧ ـ رُوي عن الرسول «ص» أنه قال :

---

(١) تأريخ بغداد ج ٨ ص ١٤١ .
(٢) كنز العمّال ج ٦ ص ٢١٨ .
(٣) تأريخ بغداد ج ١ ص ٢٥٩ .

«إنما سماها فاطمة لأنَّ الله فطمها ومحبيها من النار»[1] .

يستفاد من هذا التعبير أن تسمية هذه السيدة الجيلة بهذا الاسم إنما كان من قبل الله سبحانه وتعالىٰ، ومعناه أنه وعد فاطمة «عليها السلام» ومحبيها والمنتهجين نهجها أن لا تمسهم النار.

* ٣٨ ـ نقرأ في «ذخائر العقبىٰ» عن علي «ع» أن الرسول «ص» قال لفاطمة «عليها السلام»: يا فاطمة أتدرين لم سُمِّيت فاطمة؟

فقال علي «ع»: لم سُميِّت فاطمة يا رسول الله؟

فقال رسول الله «ص»:

«إنَّ الله عزّ وجل قد فطمها وذريتها عن النار يوم القيامة»[2] .

من البديهي أن القصد من «ذرية» هم الذين يسيرون علىٰ نهج هذه الأم العظيمة، وليس كمثل ٱبن نوح حيث جاء الخطاب: «إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح».

ولهذا نرىٰ أن بعض الأحاديث قد جمعت بين كلمتي «ذرية» و «محبي» في آنٍ واحد، ومن كان يظن منا أن معنىٰ الروايات الأخيرة هو نجاة العاصي منهم وحتىٰ الكافر المشرك من العذاب الإلهي لجهة محبته لفاطمة الزهراء «عليها السلام» فقد وقع في ٱشتباهٍ كبير، لأن ذلك لا يتفق مع أيٍّ من المعايير الإسلامية، إضافةً إلىٰ أن الرسول «ص» وهو أصل هذه الشجرة الطيبة قد خوطب في القرآن المجيد بهذه الصورة في الآية الشريفة:

﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحبطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخاسِرينَ ﴾[3] .

وتنص آية أخرىٰ علىٰ:

---

(١) تأريخ بغداد ج ٢ ص ٣٣١.

(٢) ذخائر العقبىٰ ص ٢٦.

(٣) سورة الزّمر آية ٦٥.

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعضَ الأَقاويلِ لأخذنا مِنهُ باليَمينِ ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنهُ الوَتينَ فما مِنكُمْ مِنْ أحدٍ عَنْهُ حاجِزين ﴾[1] .

فهل يمكن للفرع الزائد أن يعلو علىٰ الأصل؟ وهل أنَّ أبناء رسول الله أفضل منه؟! .

ممّا لا شك فيه أن الرسول «ص» لم يطرأ علىٰ تفكيره الشرك بالله أبداً، ولم (والعياذ بالله) يكذب علىٰ الله، لكن هذه الآيات تضمر في محتواها درساً كبيراً للأمة الإسلامية، حتىٰ يعلم الجميع أن نجاة المرء مقرونة بإخلاصه لله. وهذا لا يتنافىٰ مع المقام السامي والدرجة الرفيعة لأئمة الأمة الإسلامية وساداتها.

من المتعارف عند العرب أن يُكنّىٰ الرجل بـ «أب» وتُكنّىٰ المرأة بـ «أم»، هذا بالإضافة إلىٰ أسمائهم. ومن بين الكنىٰ التي كُنيت بها فاطمة الزهراء «عليها السلام» تبرز كنيةً عجيبةً تدل علىٰ عظمة الزهراء «عليها السلام»، كما في الرواية التالية:

* ٣٩ ـ ورد في كتاب «أسد الغابة»:
«كانت فاطمة تُكنّىٰ أم أبيها»[2] .

وورد نفس المعنىٰ في كتاب «الاستيعاب» نقلاً عن الإمام الصادق «ع»[3] :

لم يُرَ لهذا التعبير العجيب نظيراً في أيٍّ من نساء الإسلام، وهو يدل علىٰ أنَّ هذه البنت الوفية كانت تقوم بدور الأم في رعايتها لأبيها والسهر عليه.

---

(١) سورة الحاقّة آية ٤٤ ـ ٤٧.
(٢) أسد الغابة ج ٥ ص ٥٢٠.
(٣) الاستيعاب ج ٢ ص ٧٥٢.

نعلم أنّ الرسول الكريم «ص» فقد أمه وهو في مرحلة الطفولة، لكن ٱبنته هذه لم تُقصر في محبتها وحنانها وقلقها عليه رغم صغر سنها. فهي بنت مضحية وفدائية من ناحية، وهي أم مؤثرة حنونة من ناحيةٍ أخرىٰ، ومواسية وفية من ناحيةٍ ثالثة، وقد شهدت بذلك الروايات التي ذكرناها.

* هدية الرسول «ص» لفاطمة عليها السلام

سجلت صفحات التأريخ بعضاً من الهدايا المعنوية التي منحها الرسول الكريم «ص» لابنته فاطمة «عليها السلام» والتي فاقت كل واحدةٍ منها الأخرىٰ، لا سيما ـ تسبيحة الزهراء ـ ، هذا بالإضافة إلىٰ هديةٍ ماديةٍ معنوية منحها «ص» لفاطمة «عليها السلام» بأمرٍ إلهي، كما نصّ علىٰ ذلك متن الرواية التالية:

* ٤٠ ـ جاء في الدر المنثور «للسيوطي» عن البزاز وأبي يعلىٰ وٱبن حاتم وابن مردويه عن سعيد الخدري أنه قال:

«لما نزلت الآية ـ وآت ذا القربىٰ حقه[1] ـ دعا رسول الله «ص» فاطمة الزهراء «عليها السلام» وأعطاها فدكاً»[2].

وبالطبع (كما سيأتي شرحه في فصل ـ أحداث فدك المؤلمة ـ) فإن منح فدك لفاطمة «عليها السلام» لم تكن مسألةً أو هديةً عادية، بل كانت سنداً ودعامةً لولاية علي بن أبي طالب «ع» وعاملاً في تقوية وتثبيت مقام هذه العائلة الكريمة، ومن هذا المنطلق فهي تعدُّ هديةً معنوية.

ولكنَّ النظام الذي أدرك معنىٰ هذه الهدية جيداً، سارع بعد ارتحال الرسول «ص» إلىٰ ٱنتزاعها من فاطمة الزهراء «عليها السلام» وضمها إلىٰ بيت

---

(١) سورة الإسراء آية ٢٦.

(٢) الدرّ المنثور في ذيل آية ٢٦ من سورة الإسراء، وميزان الاعتدال ج ٢ ص ٢٨٨، وكنز العمّال ج ٢ ص ١٥٨.

المال مستنداً في ذلك إلىٰ حديثٍ مجعول وحجةٍ باطلة. وهذه قصة طويلة مملوءة بالعبر والأحداث المؤلمة والظالمة، والتي يمكن اعتبارها سنداً إسلامياً مهماً في تفكيك وتجزئة المسلمين في صدر الإسلام وما جرىٰ فيه من طوفانٍ رهيبٍ بعد وفاة الرسول الكريم «ص».

يُرجىٰ مراجعة متن البحث للوقوف علىٰ حقائق أكثر.

* * *

«إلهي»! أحينا ما أحييتنا علىٰ محبة وموالاة هذه السيدة وأبيها وبعلها وبنيها ـ صلوات الله عليهم ـ وأحشرنا في زمرتهم.

«يا رب» وفقنا في أتباع نهجهم، والاهتداء بنور هدايتهم، والاقتداء بسنتهم.

«واجعلنا ممن يأخذ بحجزتهم، ويمكث في ظلهم، ويهتدي بهداهم».

آمين يا رب العالمين

أحداث فدك المؤلمة

تعد قصة «فدك» من أغمِّ القصص التي مرت بحياة فاطمة الزهراء «عليها السلام» خصوصاً، وأهل البيت عموماً، وتأريخ الإسلام بشكلٍ أوسعٍ وأعم، والتي حيكت أحداثها مع المؤامرات السياسية الوضعية، كما أنّها منفَذ لحل بعضٍ من ألغاز تأريخ صدر الإسلام.

«فدك . . . ما هي، وأين كانت؟».

ذكر كثير من المؤرخين وأرباب اللغة بأن «فدك» قرية بالحجاز ـ قريبة من خيبر ـ بينها وبين المدينة يومان، وقيل ثلاثة، (وكتب البعض أنها تبعد عن المدينة بمسافةٍ مقدارها ١٤٠ كيلومتر) أفاءها الله علىٰ رسوله «ص»، وفيها عين فوارة ونخل كثير[١] ، وتعد مركزاً مهماً لليهود في أرض الحجاز بعد خيبر.

وفي كيفية آنتقال هذه الأرض الخضراء المعمورة لرسول الله «ص»، فالمعروف هو أن الانتصار الذي حققه رسول الله «ص» في فتح حصون خيبر أرعب أهل فدك المتعصبين، فأرسلوا إلىٰ رسول الله «ص» أن يصالحهم علىٰ نصف «فدك»، فقبل الرسول «ص» ذلك منهم وأمضىٰ ذلك الصلح، وبهذا فهي مما لم يوجف عليه بخيلٍ ولا ركاب.

---

(١) معجم البلدان قسمة فدك.

وبما أن القرآن ينص علىٰ ﴿ وَمَا أفاءَ الله عَلىٰ رَسُولِهِ مِنهم فَما أوْجَفْتُم عَليهِ من خيلٍ وَلا ركابٍ وَلكنَّ الله يُسلّطُ رُسُلَه علىٰ مَن يشاء والله علىٰ كلِّ شيءٍ قدير ﴾[١] ﴿ ومَا أفاءَ الله علىٰ رَسولِهِ مِن أهلِ القرىٰ فللّه وَللرّسولِ وَلِذي القربىٰ وَاليتامىٰ والمساكينِ وآبنِ السّبيلِ كيْ لا يَكونَ دُوَلةً بينَ الأغنياءِ مِنكمْ. . . . ﴾[٢] .

لذا فهي خالصةً لرسول الله «ص»، يصرف ما يأتيه منها في «أبناء السبيل» وأمثال ذلك.

نقل هذا الحديث كل من ياقوت الحموي في «معجم البلدان» و «ابن منظور الأندلسي» في «لسان العرب» وآخرون كثيرون.

وأشار إلىٰ ذلك أيضاً «الطبري» في تأريخه و «ابن الأثير» في كتاب «الكامل»[٣] . كما كتب الكثير من المؤرخين أن الرسول «ص» قد منح ابنته الزهراء «عليها السلام» فدكاً في حياته[٤] .

الدليل البين الذي يثبت هذه الحقيقة هو ما نقله المفسرون الكبار، منهم مفسر أهل السنة المعروف «جلال الدين السيوطي» في كتاب «الدر المنثور»، حيث نقل في ذيل الآية السادسة عشرة من سورة الإسراء حديثاً عن «أبي سعيد الخدري» يقول فيه:

«لما نزل قوله تعالىَ ـ وآتِ ذا القربىٰ حقه أعطىٰ رسول الله «ص» فاطمة فدكاً»[٥] .

---

(١) سورة الحشر آية ٦ .

(٢) سورة الحشر آية ٧ .

(٣) راجع كتاب «فدك» القيّم للسيد محمّد حسن القزويني الحائري.

(٤) لأنّها كانت ملكاً لرسول الله «ص».

(٥) الدرّ المنثور مجلد ٤ ص ١٧٧ . وكان مِمّن روىٰ هذا الحديث من رواة العامّة هم «البزّاز» و «أبو يعلىٰ» و «ابن مردويه» و «ابن أبي حاتم» عن أبي سعيد

الدليل الحي الآخر الذي يعتبر سنداً مهماً في هذا الأمر ـ أو لهذا الادعاء ـ هو قول أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب «ع» في نهج البلاغة:

«بلىٰ كانت في أيدينا فدك من كل ما أظلته السماء، فشحت عليها نفوس قوم، وسخت عنها نفوس قوم آخرين، ونعم الحكم الله»[1].

يشير هذا الحديث بوضوحٍ إلىٰ أن فدكاً كانت في اختيار ـ أو بيد ـ عليٍّ وفاطمة «عليهما السلام» في عصر الرسول «ص»، لكن بعض الحكام البخلاء تعلقوا بها، فتخلىٰ عليّ وزوجته «عليهما السلام» عنها مجبرين. ومن البديهي أنهم لم يكونوا موافقين لما حدث، وإلا فما معنىٰ سؤال وطلب الأمير «ع» من الله سبحانه وتعالىٰ في أن يحكم بينه وبينهم.

نقل الكثير من علماء الشيعة أيضاً في كتبهم المعتبرة روايات تتعلق بهذه المسألة، منهم: المرحوم «الكليني» في «الكافي» والمرحوم «الصدوق» والمرحوم «محمد ابن مسعود عياشي» في تفسيره، و «علي ابن عيسىٰ الأربلي» في «كشف الغمة»، وآخرون في كتب الحديث والتأريخ والتفسير، لا يسع المقام لذكرهم.

الآن... لنرىٰ لماذا وبأيّ دليلٍ انتزعت الزهراء «عليها السلام» فدكها؟.

١ ـ العوامل السياسية في غصب فدك

لم تكن مسألة انتزاع «فدك» من الزهراء «عليها السلام» مسألة عادية لا تحمل إلّا الجانب المادي فحسب، بل إن جانبها الاقتصادي قد انصبَّ في قالب المسائل السياسية التي حكمت المجتمع الإسلامي بعد وفاة

الخدري، (راجع كتاب الاعتدال مجلّد ٢ ص ٢٨٨ وكنز العمّال مجلّد ٢ ص ١٥٨).

(١) نهج البلاغة رسالة ٤٥ (المعروفة باسم «عثمان بن حنيف»).

النبي «ص»، وفي الحقيقة لا يمكن فصل مسألة «فدك» عن سائر أحداث ذلك العصر، وإنما هي حلقة من سلسلةٍ كبيرة، وظاهرةٍ من وقائعٍ شاملةٍ وواسعة!.

إنَّ لهذا الغصب التأريخي الكبير عواملاً نوردها في النقاط التالية:

١ ـ يعتبر وجود «فدك» في حيازة آل بيت النبوة «عليهم السلام» ميزةً معنوية كبيرة لهم، وهذا بحد ذاته دليل علىٰ علوٍّ مقامهم في الحضرة الإلٰهية وقربهم الشديد من الرسول «ص»، خصوصاً ما نقلته كتب الشيعة والسنّة في الروايات التي ذكرناها آنفاً من أن الرسول «ص» استدعىٰ فاطمة «عليها السلام» بعد نزول الآية ﴿ وآتِ ذا القربىٰ ﴾ وأعطاها فدكاً.

من الواضح أن وجود «فدك» في حيازة آل بيت محمد «ص» منذ البداية يكون مدعاةً لالتفاف الناس حولهم والبحث عن سائر آثار النبيِّ الكريم «ص» في هذه العائلة خصوصاً مسألة الخلافة، وهذا الأمر لم يكن ليتحمله مؤيدو إنتقال الخلافة إلىٰ الآخرين.

٢ ـ كانت هذه المسألة مهمة في بعدها الاقتصادي، كما هو أثرها الفعال في بعدها السياسي، لأن وقوع أمير المؤمنين «ع» وآله في مضيقةٍ اقتصادية يؤدي إلىٰ تدهور وضعهم السياسي بنفس النسبة. بعبارةٍ أخرىٰ فإنَّ حيازتهم علىٰ فدك يوفر لهم امتيازات تكون بمثابة المتكأ الذي تستند عليه مسألة الولاية كما فعلت أموال خديجة «ع» في تقدم الإسلام في بدء دعوة نبي الإسلام «ص».

من المتعارف عليه في جميع أنحاء العالم أنه إذا أريد طمس شخصيةٍ كبيرة، أو تقييد دولةٍ ما لتعيش حالة الانزواء فإنه يُعمل علىٰ محاصرتها اقتصادياً، وقد نصَّ تأريخ الإسلام في قصة «شعب أبي طالب» عندما حوصر المسلمون من قبل المشركين حصاراً اقتصادياً شديداً.

في تفسير سورة المنافقين، وفي ذيل الآية ﴿ لَئِنْ رَجَعْنا إلىٰ المَدينةِ

لَيُخرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْها الأذَلَّ ﴾[1] أُشير إلىٰ مؤامرةٍ شبيهةٍ بهذه المؤامرة قد حاكها المنافقون، لكنَّ اللطف الإلهي أخمد نارها وهي في شرارتها الأولىٰ، لذا فليس من العجب في شيءٍ أن يسعىٰ المخالفون إلىٰ انتزاع هذه الثروة من آل بيت النبي الكريم «ص»، وإخلاء أيديهم ودفعهم بعيداً عن الساحة.

٣ ـ وإن هم وافقوا علىٰ أن فدك كانت ميراث النبي «ص» أو هديته لابنته فاطمة الزهراء «عليها السلام» وبالتالي تسليمها إليها فإن ذلك سيفتح الطريق لها في المطالبة بمسألة الخلافة. هذه النقطة يطرحها العالم السني المشهور «ابن أبي الحديد المعتزلي» في شرح «نهج البلاغة» بصورةٍ ظريفةٍ، حيث يقول.

«سألت علي بن الفارقي مدرس المدرسة الغربية ببغداد، فقلت له: أكانت فاطمة صادقة؟ قال: نعم، قلت: فلم لم يدفع إليها أبو بكر فدك وهي عنده صادقة؟ فتبسم، ثم قال كلاماً لطيفاً مستحسناً مع ناموسه وحرمته وقلّة دعابته، قال: لو أعطاها اليوم فدك بمجرد دعواها لجاءت إليه غداً وأدعت لزوجها الخلافة، وزحزحته عن مقامه، ولم يكن يمكنه الاعتذار والمدافعة بشيء، لأنه يكون قد أسجل علىٰ نفسه أنها صادقة فيما تدعيه كائناً ما كان من غير حاجةٍ إلىٰ بيِّنةٍ ولا شهود» وبعدها يضيف «ابن أبي الحديد» قائلاً:

«وهذا كلام صحيح، وإن كان أخرجه مخرج الدعابة والهزل»[2].

إنَّ هذا الاعتراف الصريح الذي أدلىٰ به اثنان من علماء أهل السنة، لشاهد حيّ علىٰ أنّ لقصة فدك جانباً سياسياً هاماً ـ أو بعداً سياسياً ـ.

ولكي يتضح هذا المعنىٰ سنقف في البحث التالي علىٰ مصير هذه القرية عبر تأريخ الإسلام منذ قرونه الأولىٰ، وكيف أنها أنتقلت من يدٍ إلىٰ أخرىٰ وكيف تباينت آراء الخلفاء بخصوصها.

---

(١) سورة المنافقين آية ١.
(٢) شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد مجلّد ١٦ ص ٢٨٤.

٢ ـ فدك عبر العصور
(كيف عادت فدك لأهل البيت عليهم السلام)

يعد مسير فدك التأريخي من عجائب التأريخ الإسلامي، فقد كان لكل من الخلفاء عبر العصور موقفاً خاصاً منها، فمنهم من قبضها ومنهم من ردّها إلىٰ أصحابها، وطال الأمد بها علىٰ هذا الحال إلىٰ أن صبخت الأرض وضاع منها نعيمها. وللتعرف علىٰ فصول النزاع الذي مرت به هذه القرية المدمرة يكفينا الوقوف علىٰ النقاط التالية: ـ أو يكفي التوقف عند النقاط التالية: ـ

١ ـ إنتقلت «فدك» كما نعلم إلىٰ الرسول «ص» بعد سقوط خيبر لأنه قبل الصلح مع اليهود. وطبقاً للآية الشريفة ﴿ وَمَا أَفَاءَ الله عَلَىٰ رَسُولِه . . . . ﴾ فقد صارت كلها ملكاً شخصياً مختصاً برسول الله «ص».

٢ ـ طبقاً للوثائق التأريخية المعتبرة فإنّ الرسول «ص» منح وبأمرٍ إلهي فدكاً إلىٰ فاطمة الزهراء «عليها السلام» في حياته، وذلك عندما نزلت الآية الشريفة ﴿ وآتِ ذا القربىٰ حقه ﴾. بهذه الصورة أصبحت في حيازة ملكية ٱبنة الرسول الكريم «ص».

٣ ـ اغتصبت هذه المعمورة في زمن الخليفة الأول، وضُمَّت إلىٰ أموال الدولة، وقد سعىٰ هؤلاء في الحفاظ علىٰ هذا الوضع.

٤ ـ ظل الوضع علىٰ هذا الحال إلىٰ أن آلت هذه الأرض إلىٰ الخليفة الأموي «عمر بن عبد العزيز» الذي كان أقرب لأهل البيت «عليهم السلام» من غيره، حيث نقرأ في شرح نهج البلاغة: «لما وُلي عمر بن عبد العزيز ردَّ فدك علىٰ ولد فاطمة، وكتب إلىٰ واليه علىٰ المدينة أبي بكر عمرو بن حزم يأمره بذلك، فكتب إليه: إن فاطمة قد ولدت في آل عثمان، وآل فلان وآل فلان، فعلىٰ من أردُّ منهم؟ فكتب إليه:

«أما بعد: فإني لو كتبت إليك آمرك أن تذبح شاةً لكتبت إليَّ: أجماء أم

قرناء؟ أو كتبت إليك أن تذبح بقرةً لسألتني: ما لونها؟ فإذا ورد عليك كتابي هذا فأقسمها في ولد فاطمة «عليها السلام» من عليٍّ «عليه السلام» والسلام»[1].

بهذا الشكل صارت «فدك» بيد أبناء فاطمة «عليها السلام» بعد أن دارت دورةً كبيرة تنقلت فيها بين هذا وذاك.

٥ ـ لم يمضِ وقت طويل حتىٰ غصبها الخليفة الأموي «يزيد بن عبد الملك» ثانيةً.

٦ ـ بعد ولىٰ الأمويون واستخلفهم العباسيون، فأعاد الخليفة العباسي المعروف «أبو العباس السفاح» فدكاً إلىٰ «عبد الله بن الحسن بن علي «عليهما السلام» باعتباره ممثل بني فاطمة «عليها السلام».

٧ ـ بعدها مباشرة قام «أبو جعفر العباسي» بأنتزاعها من «بني الحسن» (علماً أنهم ثاروا عليه).

٨ ـ أعاد الخليفة «مهدي العباسي» ابن «أبو جعفر» فدكاً إلىٰ أبناء فاطمة «عليها السلام».

٩ ـ قام الخليفة العباسي «موسىٰ الهادي» بغصبها ثانيةً، وظل الوضع علىٰ هذا الحال في زمن هارون الرشيد.

١٠ ـ ولكي يُظهر علاقته الشديدة بأهل بيت الرسول «ص» وأبناء عليٍّ وفاطمة «عليهما السلام»، قام المأمون برد فدك إلىٰ وُلد فاطمة «عليها السلام» يصاحبه تشريفات مجللة.

لقد ورد في التأريخ أن المأمون كتب إلىٰ واليه علىٰ المدينة «قثم بن جعفر» قائلاً:

---

(١) شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ج ١٦ ص ٢٧٨.

«إنَّه كان رسول الله أعطىٰ ٱبنته فاطمة فدكاً وتصدق عليها بها، وإنَّ ذلك كان أمراً ظاهراً معروفاً عند آله عليهم السلام ثم لم تزل فاطمة تدعي منه بما هي أولىٰ من صدق عليه، وإنه قد رأىٰ ردها إلىٰ ورثتها وتسليمها إلىٰ «محمد بن يحيىٰ بن الحسين بن زيد بن عليّ». . . و «محمد بن عبد الله بن الحسين». . . ليقوما بها لأهلهما».

يقول ابن أبي الحديد:

«جلس المأمون للمظالم، فأول رقعةٍ وقعت في يده نظر فيها وبكىٰ، وقال للذي علىٰ رأسه: ناد أين وكيل فاطمة؟ فقام شيخ عليه دراعة وعمامة وخفّ تعزي، فتقدم فجعل يناظره في فدك والمأمون يحتجُّ عليه والمأمون يحتج علىٰ المأمون، ثمَّ أمر أن يسجل لهم بها، فكتب السجل وقرئ عليه، فأنفذه، فقام دعبل إلىٰ المأمون فأنشده الأبيات التي أوّلها:

أَصْبَحَ وَجْهُ الزَّمَانِ قَدْ ضَحِكَا ... بِرَدِّ مَأْمُونَ هَاشِماً فَدَكَا[1]

وقد ذكر مؤلف كتاب «فدك» أن المأمون اعتمد علىٰ رواية أبي سعيدٍ الخدري بإعطاء النبيِّ «ص» فدكاً لفاطمة فأمر برد فدك علىٰ أبنائها[2].

١١ ـ أما «المتوكل العباسي» وبسبب الحقد الذي كان يضمره في قلبه علىٰ أهل بيت النبوة «عليهم السلام»، قام بغصب فدك من أبناء فاطمة «عليها السلام» مجدداً.

١٢ ـ أصدر ابن المتوكل وهو «المنتصر» أمراً برد فدك إلىٰ أبناء الحسن والحسين «عليهما السلام» ثانيةً.

مما لا شك فيه أن تنقل الأرض من يدٍ لأخرىٰ، والتلاعب بأمرها في كل يومٍ من قبل السياسيين الحاقدين سيسبب هلاكها وخرابها بسرعة، وهو

---

(١) شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ج ١٦ ص ٢١٧.

(٢) فدك السيد محمد حسن القزويني ص ٦٠.

عين ما حدث لفدك، فسرعان ما خربت عمارتها وتيبست أشجارها وجفت ثمارها!.

علىٰ كل حال فإن هذه الانتقالات التي حصلت إنّما تدل علىٰ حقيقةٍ محسوسةٍ ملموسة، ألا وهي أنّ الخلفاء كانوا شديدي الحساسية اتجاه فدك. فتصرف وموقف كلّ منهم إنما هو نابع مما تقتضيه مصلحته السياسية.

وكل ذلك تأكيد علىٰ ما ذكرناه من أن لغصب فدك بُعداً سياسياً أهم من بعده الاقتصادي، فمصلحتهم كانت تقتضي منهم أن يعملوا علىٰ إبعاد أهل بيت الرسالة «عليهم السلام» عن المجتمع الإسلامي، والتقليل من شأنهم ومكانتهم، وإظهار العداء لهم تارةً، والتقرب والتودد إليهم تارة أخرىٰ عن طريق ردّ فدك إليهم والذي تكرر لعدة مراتٍ عبر التأريخ.

إنّ أهمية فدك في أذهان عامة المسلمين محدودة، فما يذكره التأريخ هو أنّها لم تزل في أيديهم حتىٰ كان في أيام المتوكل، وكان فيها إحدىٰ عشرة نخلة غرسها رسول الله «ص» بيده، فكان بنو فاطمة يأخذون ثمرها، فإذا قدم الحجّاج أهدوا لهم من ذلك التمر فيصلونهم، فيصير إليهم من ذلك مال جزيل جليل[1].

٣ ـ فدك وأئمة الهدىٰ

من المسائل الملفتة للنظر هي عدم تدخل أيّ من الأئمة «بعد الغصب الأول» في أمر فدك، ابتداءً من أمير المؤمنين «ع» ومروراً بالأئمة من ولده بل إنّ بعض الخلفاء من أمثال «عمر بن عبد العزيز» و «المأمون» اقترحوا ردّها علىٰ واحدٍ من أئمة أهل البيت «عليهم السلام»، وكان ذلك مدعاةً للحيرة والتساؤل عن سبب موقفهم هذا من فدك؟.

لِمَ لم يرجع عليٌّ الحق إلىٰ أهله عندما كانت الدولة الإسلامية تحت

(١) شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ج ١٦ ص ٢١٧.

سيطرته، أو لماذا (علىٰ سبيل المثال) لم يعطِ المأمون فدكاً إلىٰ عليٍّ بن موسىٰ الرضا «ع» خصوصاً وأنّه كان يظهر للإمام حبه العميق؟ ولماذا أعطاها لبعضٍ من حفدة زيد بن علي بن الحسين «ع» باعتباره ممثلاً عن «بني هاشم»؟.

في الإجابة علىٰ هذا السؤال التأريخي المهم نقول:

أما بالنسبة لأمير المؤمنين «ع» فإنَّه أفصح عن رأيه في أمرها في قوله المختصر الغزير المعنىٰ والذي قال فيه:

«بلىٰ كانت في أيدينا فدك من كلِّ ما أظلته السماء، فشحت عليها نفوس قوم، وسخت عنها نفوس قوم آخرين، ونعم الحكم الله . وما أصنع بفدكٍ وغير فدك، والنفس مظانّها في غدٍ جدث تنقطع في ظلمته آثارها، . . . . . »[1] .

بين أمير المؤمنين «ع» بصورةٍ عملية أن مطالبته بفدكٍ لم تكن لكونها منبعاً اقتصادياً يسترزق منه، وأن هو وزوجته طالبا بها يوماً فلأنّها سبيل إلىٰ تثبيت مسألة الولاية، ومنع خطوط الانحراف من السيطرة علىٰ منصب خلافة الرسول «ص». الآن وبعد أن مضىٰ ما مضىٰ، وبعد أن بقىٰ لفدك جانبها الماديّ فقط، فما فائدة استردادها؟.

للعالم والمحقق الكبير السيد المرتضىٰ كلام قيم، حيث يقول:

«لما وصل الأمر إلىٰ عليٍّ بن أبي طالب كُلِّم في رد فدك فقال: إنِّي لأستحي أن أرُدَّ شيئاً منع منه أبو بكر وأمضاه عمر»[2] .

إن هذا القول الحكيم يشير في الحقيقة إلىٰ شهامة وعدم اعتناء الأمير «ع» بفدك كونها ثروة مادية ومنبع رزق من ناحية، ومن ناحية أخرىٰ

---

(١) نهج البلاغة رسالة ٤٥ .

(٢) فتوح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ج ص .

فهو يعرف غاصبي الحق الأوائل.

أما لماذا لم يسلم الخلفاء الذين أظهروا ودهم لآل بيت النبوة «عليهم السلام» فدك إلىٰ الأئمة، ودفعوها إلىٰ أحد أحفاد زيد بن علي مثلاً أو أشخاصاً غير معروفين بأعتبارهم ممثلين لبني فاطمة «عليها السلام»؟

يمكن أن يكون لهذا الأمر سببان:

١ - لم يكن أئمة الهدىٰ «عليهم السلام» ليتقبلوا فدكاً، فحينها كان لذلك العمل بعداً مادياً يطغىٰ علىٰ بعده المعنوي، وربما كان يحمل علىٰ أنه تعلق بثروةٍ دنيوية لا معنوية. بتعبيرٍ آخر فإن تسلم الأئمة «عليهم السلام» لها في تلك الظروف يقلل من شأنهم، إضافة إلىٰ أن ذلك سيمنعهم من القيام علىٰ خلفاء الجور، فكلما أرادوا مجاهدة الحكام أنتزعت منهم فدك. (وهذا نفس ما رواه التأريخ من أن الخليفة العباسي «أبو جعفر» انتزع فدك من «بني الحسن» عندما ثار بعضهم عليه).

٢ - من ناحيةٍ أخرىٰ كان الخلفاء يفضلون عدم تطور إمكانات الأئمة «عليهم السلام» المادية، فكما هو معروف في قصة «هارون الرشيد» عند مجيئه للمدينة واحترامه الشديد للإمام «موسىٰ بن جعفر» «ع» بشكلٍ أذهل ذلك ابنه المأمون.

ولكن عندما حان وقت الهدايا، أرسل الرشيد هدية متواضعةً للإمام «ع»، فتعجب المأمون من ذلك، وعندما سأل أباه عن السبب، قال الرشيد:

«أسكت لا أمّ لك! فإني لو أعطيته هذا ما ضمنته له، ما كنت آمنه أن يضرب وجهي غداً بمائة ألف سيفٍ من شيعته ومواليه، وفقر هذا وأهل بيته أسلم لي ولكم من بسط أيديهم وإغنائهم»[1].

---

(١) الاحتجاج الطبرسي ص ١٦٧ (وكان الرّشيد قد أعطىٰ لغير الإمام خمسة آلاف دينارٍ وأعطىٰ للإمام «ع» مائتا دينارٍ فقط!).

٤ ـ محكمة تأريخية

كما مر ذكره، نقل الرسول «ص» ملكية فدكٍ إلىٰ فاطمة الزهراء «عليها السلام» بعد أن نزلت الآية الشريفة ﴿ وآتِ ذا القربىٰ حقّه ﴾. ولم ينفرد مفسرو الشيعة في نقل هذه الرواية عن الصحابي المعروف «أبو سعيد الخدري» بل وآتفق معهم علماء الجمهور أيضاً. وقد أوردنا إسناد هذه الرواية قبلاً.

وضعت الحكومة التي استولت علىٰ الخلافة بعد الرسول «ص» يدها علىٰ فدك، وأخرجت أبناء فاطمة «عليها السلام» منها. نقل هذا الأمر كل من العالم السني المعروف «ابن حجر» في كتاب «الصواعق المحرقة» و «السمهودي» في «وفاء الوفاء» و «ابن أبي الحديد» في «شرح نهج البلاغة».

قامت سيدة الإسلام «عليها السلام» بالمطالبة بحقها عن طريقين:

الأول هو كون فدك هدية الرسول «ص» لها، والثاني هو أنها ميراثها من أبيها «ص» (بعد أن رُدَّت دعوىٰ الهدية).

استشهدت سيدة النساء في المرحلة الأولىٰ بأمير المؤمنين «علي بن أبي طالب» «ع». و «أم أيمن «رض»» عند الخليفة الأول، لكن الخليفة لم يقبل شهادتهما ولم يقر حقها بحجة أن الدعوىٰ لا تثبت إلا بشهادة رجلين أو رجلاً وآمرأتين.

بعدها يقوم برد مسألة «الإرث» مدعياً أن الرسول «ص» قال:
«إنا معاشر الأنبياء لا نُورث، ما تركناه صدقة».

لكن ومن خلال تحقيقٍ شاملٍ يتضح أن النظام الحاكم الغاصب قد آرتكب في عمله هذا عشرة أخطاء فاحشة، سنقوم بعرضٍ مختصرٍ لها:

١ ـ كانت فاطمة «عليها السلام» تملك فدك، أي أنها كانت «ذو اليد»،

وفي رأي القوانين الإسلامية وجميع القوانين المعروفة في الوسط العقلاني العالمي فإن «ذو اليد» لا يحتاج إلىٰ استشهاد أو تصديقٍ علىٰ ما يملكه إلا إذا أظهرت شواهد علىٰ بطلان ملكيته.

فمثلاً إذا ٱدّعىٰ شخص ملكية دارٍ يسكن فيها، فلا يمكن إخراجها من يده ما لم يظهر دليل يُنافي إدعائه، كما لا حاجة في أن يشهد أحداً علىٰ ديمومة ملكيته، بل إن هذا التصرف (إن أراد إنجازه بنفسه أو يوكله لممثليه) لأفضل دليلٍ علىٰ صحة مالكيته.

٢ ـ إن شهادة فاطمة الزهراء «عليها السلام» لوحدها كانت كافية في هذه المسألة، لأنها معصومة بحكم الآية الشريفة: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾[1] ، وحديث الكساء المشهور الذي نقلته كتب العامة المعتبرة وكتب الصحاح، فأبعد الله عز وجل القبح والذنب عن النبي «ص» وعليٍّ وفاطمة والحسن والحسين «عليهم السلام»، وطهرهم من كلِّ معصية. وهنا كيف يمكن أن يشكَّ أو يرتاب الآخرون بأدعاء مثل هذا الشخص؟.

٣ ـ إنَّ شهادة الإمام علي «ع» لوحدها كانت كافية أيضاً، فهو يتحلىٰ بمنزلة العصمة أيضاً، وآية التطهير والروايات التي تدلّ علىٰ هذا المعنىٰ وفيرة، منها الحديث المشهور «الحق مع عليٍّ، وعليٌّ مع الحق، يدور معه حيثما دار»[2] الذي يكفينا دليلاً علىٰ عصمته «ع». إذاً كيف يدور الحق حول محور وجود عليٍّ «ع»، لكن شهادته غير مقبولة؟.

٤ ـ تعد شهادة «أم أيمن» هي الأخرىٰ كافيةً في إثبات الحق، فكما ينقله ابن أبي الحديد: عندما جاءت فاطمة «عليها السلام» بأم أيمن للشهادة، قالت «أم أيمن» لأبي بكر: لا أشهد يا أبا بكر حتىٰ أحتجّ عليك بما قال رسول

---

(١) سورة الأحزاب آية ٣٣.

(٢) شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد مجلد ١٦ ص ٢١٩.

الله «ص»، أنشدك بالله ألست تعلم أن رسول الله «ص» قال: «أم أيمن امرأة من أهل الجنة». فقال أبو بكر: بلىٰ.

إذن فكيف تُردُّ شهادتها بعد أن علموا مقامها وهي من أهل الجنة[1] .

٥ ـ إضافة إلىٰ كلِّ ما سبق، يكتفي الحاكم بتوفر القرائن المختلفة «حسيةً كانت أم الشبيهة بها» ليقوم بالفصل في الدعوىٰ، فهل يا ترىٰ أن مسألة «ذو اليد» من ناحية، وشهادة الشهود الذين تكفي شهادة كلٍّ منهما في إثبات وإحقاق الحق من ناحيةٍ أخرىٰ، لا يوفران العلم واليقين لدىٰ الحاكم؟.

٦ ـ لم يكن حديث ميراث الأنبياء في الواقع كما صاغه وفسره الغاصبون، وإنما كان بشكلٍ ومعنىً آخرين، فمصادر الحديث تنقل الحديث بالشكل الآتي «إن الأنبياء لَمْ يُورثوا ديناراً ولا درهماً ولكن ورثوا العلم فمن أخذ منه أخذ بحظٍّ وافرٍ»[2] . وهنا نستدل أن الحديث يقصد الإرث المعنوي الذي يورثه الأنبياء، ولا علاقة له بالإرث المادي، وهذا هو مصداق الحديث المروي عن الرسول «ص» والذي ينص علىٰ: «العلماء ورثة الأنبياء».

خصوصاً عبارة «ما تركناه صدقة» فهي حتماً لم تكن موجودةً في ذيل الحديث مطلقاً، فهل يمكن أن يتحدث الرسول «ص» بما يخالف صريح القرآن؟ إنَّ القرآن الكريم يشهد في مواضع متعددة علىٰ توريث الأنبياء أبناءهم، وتشير آياته الشريفة بوضوح إلىٰ أن ميراثهم لم يقتصر علىٰ الميراث المعنوي فحسب، بل وشمل الجانب المادي أيضاً.

وقد أستدلت سيدتنا فاطمة الزهراء «عليها السلام» بهذه الآيات المباركة في خطبتها المعروفة التي ألقتها في المسجد النبوي الشريف بين جمع من المهاجرين والأنصار، فلم ينكر عليها أحد منهم ما تقول، كل ذلك

---

(١) شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد.
(٢) الكافي مجلد ١ ص ٣٤.

كان دليلاً علىٰ زيف الحديث الذي ادّعاه الخليفة.

٧ ـ إن صحَّ هذا الحديث، فكيف لم تعرف ولم تسمع به أي من نساء النبي «ص»، حيث أرسلن إلىٰ الخليفة من يطالب بسهمهنَّ من ميراث الرسول «ص»[١].

٨ ـ إن صح هذا الحديث، فلماذا أصدر الخليفة مباشرة حكماً أمر فيه برد فدك إلىٰ فاطمة الزهراء «عليها السلام»، ذلك الحكم الذي سلبه الخليفة الثاني منها ومزقه[٢].

٩ ـ إذا كان لهذا الحديث واقعية، وكان لازماً تقسيم فدك علىٰ المستحقين بأعتبارها صدقة، فلم استدعىٰ الخليفة الثاني في زمان خلافته عليًّا «ع» والعباس ـ بعد فوات الأوان ـ وأبدىٰ استعداده في تسليمهما فدك، كما جاء في كتب تأريخ الإسلام المشهورة[٣].

١٠ ـ ورد في كتب «الشيعة» و «السنة» المعتبرة أن سيدة الإسلام فاطمة الزهراء «عليها السلام» غضبت علىٰ الخليفتين الأول والثاني بعد أن منعاها حقها ـ فدك ـ، وقالت لهما «لن أكلمكما بعد اليوم»[٤] وكان الأمر كما قالت إلىٰ أن وافاها الأجل.

في حين أن المصادر الإسلامية المشهورة تنقل عن الرسول «ص» حديثه المشهور الذي قال فيه: «من أحب أبنتي فاطمة فقد أحبني، ومن أرضىٰ فاطمة فقد أرضاني، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني»[٥].

---

(١) معجم البلدان الحموي ج ٤ مادة فدك ص ٢٣٩ شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ج ٦ ص ٢٢٣.

(٢) السيرة الحلبية في سيرة الأمين والمأمون ج ٣ ص ٤٨٨ دار المعرفة للطباعة والنشر.

(٣) صحيح البخاري باب فضل الخمس وكتاب «الصواعق المحرقة» لابن حجر ص ٩.

(٤) الإمامة والسياسة ابن قتيبة ص ١٤.

(٥) صحيح البخاري باب فضل الخمس وكتاب «الصواعق المحرقة» لابن حجر ص ٩.

فهل من الممكن بعدها أن تمنع فاطمة «ع» حقاً يطالب به، ومن ثم التمسك بحديثٍ يفتقد إلىٰ الصحة والصدق والرجوع إليه في مقابل نص كتاب الله الذي ينصُّ علىٰ توريث الأنبياء أبناءهم.

علىٰ كلٍّ حال، لا يوجد سبب موجّه في مسألة غصب فدك، وليس لذلك الفعل دليل معقول.

مالكية الزهراء «عليها السلام» من ناحية.
الشهود العدول المعتبرون من ناحية أخرىٰ.
شهادة القرآن المجيد من ناحيةٍ ثالثة.

ومن ناحيةٍ رابعة نرىٰ الروايات الإسلامية المختلفة التي تصدق وتشهد بأحقية سيدة الإسلام في فدك.

إضافة إلىٰ كلٍّ ذلك فإنَّ آيات المواريث عموماً تنصّ علىٰ أن لجميع الناس الحق في تركة آباءهم وأمهاتهم والأقربون. لذا لا يمكن التغاضي عن هذا الحكم الإسلامي مادام الدليل علىٰ نفي تلك الشمولية معدوم، وهذا شاهد آخر.

* * *

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حدود فدك!

إنّ فدك ـ كما ذكرنا آنفاً ـ هي في الظاهر قرية مخضرة مثمرة قريبة من خيبر، لم تخفَ حدودها علىٰ أحد، لكن العجب في جواب الإمام موسىٰ بن جعفر «ع» لهارون الرشيد عندما سأله الأخير قائلاً:

«حُدَّ فدكاً حتىٰ أردها إليك»

فأبىٰ الإمام «ع» لكن الرشيد ألحّ عليه.

فقال «ع»: لا آخذها إلاّ بحدودها.

قال هارون: وما حدودها؟.

قال «ع»: إن حدّدتها لم تردّها.

قال هارون: بحق جدك إلا فعلت؟.

قال «ع»: أما الحد الأول فعدَن، فتغير وجه الرشيد وقال: أيهاً، قال: والحدّ الثاني سمرقند، فأربد وجهه، قال: والحدّ الثالث أفريقية فأسودَّ وجهه، وقال: هيه، قال: والرابع سيف البحر مما يلي الجزر وأرمينية.

قال الرشيد: فلم يبقَ لنا شيء، فتحول إلىٰ مجلسي.

قال الإمام «ع»: قد أعلمتك أنني إن حددتها لم تردها، فعند ذلك عزم علىٰ قتله[1] ـ.

---

(١) بحار الأنوار ج ٤٨ ص ١٤٤.

الاستنتاج

إن قصة «فدك» المؤلمة التي تحكي أحداث قريةٍ صغيرةٍ عانت الكثير عبر تاريخ الإسلام، تشير بوضوح إلىٰ المؤامرة الكبيرة التي هدفت إلىٰ إبعاد أهل بيت النبوّة «عليهم السلام» عن منصب الخلافة الإسلامية وتجاهل مقام إمامتهم وولايتهم، مؤامرة شملت مختلف الأبعاد.

لقد سعىٰ السياسيون منذ البدء خصوصاً في عصر «بني أمية» و «بني العباس» أن يسدلوا الستار علىٰ أهل بيت النبوة «عليهم السلام»، ويسلبوهم كل ميزةٍ تؤدي إلىٰ تفوقهم وانتصارهم، بل لم يتوانوا (عند لزوم الأمر) في الاستفادة من عنوان واسم أهل البيت «عليهم السلام» في تحقيق مآربهم، في حين أنهم رفضوا ردَّ الحق إلىٰ أصحابه!.

نعلم جيداً أن حجم الدولة الإسلامية قد كبر في عصر «بني أمية» و «بني العباس» كما زادت ثرواتها وكثرت ذخائر بيت المال بشكلٍ قلَّ مثيله في تأريخ العالم إن لم ينعدم، ورغم أن قرية فدك لم تكن لتشكلَ رقماً في مقابل كلِّ ذلك، إلا أن الدوافع الشيطانية لم تسمح لهم برد الحق إلىٰ أصحابه، بل دأبوا علىٰ ديمومة لعبتهم في مسألة فدك.

وفي الحقيقة، تعتبر قصة فدك وثيقة من التأريخ الإسلامي تثبت مقام آل بيت النبيّ «ص» الرفيع من ناحية، وتشير إلىٰ ظلامتهم من ناحيةٍ أخرىٰ، وتكشف الغطاء عن المؤامرات التي حاكها الأعداء لهم من ناحيةٍ ثالثة.

اللهمَّ اجعل محيانا محيا محمدٍ وآل محمدٍ ومماتنا ممات محمدٍ وآل محمدٍ ـ صلىٰ الله عليه وآله وسلم ـ واحشرنا في زمرتهم والعن أعدائهم أجمعين.

الملحمة الكبيرة

الخطبة التأريخية لسيدة الإسلام فاطمة الزهراء «عليها السلام»

ساد العالم الإسلامي بعد وفاة الرسول «ص» طوفان عجيب، وكان محور هذا الطوفان يدور حول منصب «الخلافة»، ثم أنتقل آلىٰ كلّ ما يرتبط بهذا المنصب، منها قرار مصادرة أرض «فدك» التي وهبها الرسول «ص» لابنته فاطمة «عليها السلام» استناداً إلىٰ مصالح مهمة، فقد صودرت من قبل النظام الحاكم[1] .

---

(١) «فدك» كما قلنا هي واحدة من القرىٰ المعمورة التي تقع علىٰ أطراف المدينة المنوّرة، ويسكنها جمع من اليهود وهم كسائر يهود المدينة وخيبر في التآمر علىٰ الإسلام.
في السنة السابعة للهجرة وبعد أن تساقطت قلاع خيبر الواحدة تلو الأخرىٰ أمام جنود الإسلام وبعد أن تحطمت قدرة اليهود المركزية لجأ سكان «فدك» للصلح مع النبيّ «ص» والتسليم له، فقد أعطوه نصف الأرض والبساتين وآحتفظوا بالنصف الآخر.
قام الرسول «ص» في حياته ـ طبقاً لما نقله مؤرخوا ومفسروا الشيعة والسنّة ـ بإعطاء فدك لفاطمة «عليها السلام»، لكن غاصبي الحكومة الإسلامية بعد الرسول «ص»

لاحظت فاطمة «عليها السلام» أن هذا التجاوز الواضح وما يرافقه من تجاهلٍ للأحكام الإسلامية في هذا الأمر سيجرف الأمة الإسلامية إلىٰ انحرافٍ كبيرٍ عن تعاليم الإسلام وسنة الرسول الكريم «ص» وتتجمل بتقاليد الجاهلية، من ناحيةٍ أخرىٰ فإنها مقدمة لفرض إقامةٍ جبريةٍ علىٰ عليٍّ أمير المؤمنين «ع» ومحاصرته وأصحابه اقتصادياً، لذا بدأت بالدفاع عن حقها أمام غاصبي «فدك»، وطالبت بكل وجودها بإعادة حقها السليب، لكن النظام الحاكم رفض أداء حقها بحجةٍ باطلة وحديثٍ مجعول «نحن معاشر الأنبياء لا نورث».

أقبلت سيدة نساء العالمين مع جمعٍ من نساء بني هاشم إلىٰ مسجد النبيِّ «ص» لتعلن عن رأيها وظلامتها أمام جمهور المسلمين، وسادات المهاجرين والأنصار حتىٰ تتمَّ حجتها، وتكشف حجج هذا الغصب العجيب والمصادرة الظالمة من قبل جهاز النظام، إضافةً إلىٰ فضح صفوف المدافعين عن سياسة التجاوز وتمييزهم عن الأوفياء الحقيقيين للإسلام.

وهي لم تعتن لتوتر الوضع الذي صنع في هذا المجال، وما سيترتب علىٰ هذه الفضيحة الكبيرة من نتائج، فقد استمرت في تصميمها، واحتجت علىٰ حجة «غصب فدك» من خلال خطبة غراء ألقتها أمام المهاجرين في المسجد مزيلةً الستار عن كثيرٍ من الحقائق.

كانت هذه الخطبة بمثابة تحذيرٍ مروع لأولئك الذين سعوا إلىٰ حرف

قاموا بمصادرة تلك الأرض استناداً علىٰ حججٍ باطلة ومن ثمَّ ضمها إلىٰ بيت المال ـ وفي الواقع ضمّها إلىٰ أموالهم ومنافعهم الشخصية ـ خوفاً من نموّ القدرة الاقتصادية لزوجة أمير المؤمنين علي «ع» وبالتالي منافستهم سياسياً علىٰ الخلافة، علماً أنّهم عملوا إلى تشتيت أصحاب علي «ع».

إنّ قصة فدك والحوادث المختلفة الأخرىٰ التي جرت في صدر الإسلام والمرحلة التي تلت ذلك لهي من أغمّ وأشدّ ما أفرزه التأريخ الإسلامي ألماً وعبرةً ومآسي. وهذا ما ورد تفصيله في فصلٍ من هذا الكتاب وبشكلٍ منفصل.

الحكومة الإسلامية وخلافة الرسول «ص» عن مسيرها الحقيقي وتضييع تلك الزحمات التي تحملها لأكثر من عقدين.

«جرص الإيقاظ» لأولئك الذين ينبض قلبهم بعشق الإسلام، ويخافون علىٰ مستقبل هذا الدين الطاهر.

. «الإنذار العنيف» لأولئك الغافلين عن تغلغل المنافقين ونفوذهم في الجهاز السياسي بعد الرسول «ص»، والمتجاهلين لأعمالهم المبطنة.

«الصرخة المتألمة» في حماية عليٍّ أمير المؤمنين «ع» ووصيِّ رسول رب العالمين «ص»، حيث تجاهل بعض السياسيين كلَّ ما ورد فيه من آياتٍ قرآنيةٍ وتوصياتٍ للرسول «ص».

«إحقاق الحق المظلوم» لتوعية كل من غُصب حقه وهو يفضل المسالمة والسكوت علىٰ الانتفاضة والتصدي.

«الصيحة المؤثرة» التي دوىٰ صداها في كلِّ مكان، وبقيت آثارها علىٰ مر العصور والقرون.

«الطوفان العميق» الذي أيقظت أمواجه المتلاطمة تلك الأرواح النائمة - ولو مؤقتاً - ، وأظهر لها طريق الحق.

وأخيراً فقد كانت «الصاعقة المميتة» التي حلت برؤوس أعداء الإسلام، وأحدثت فيهم الغفلة.

إن ما تضمنته خطبة أبنة الرسول الكريم «ص» من تفسيرٍ لمسائل العقيدة والاجتماع والسياسة المهمة لدليل واضح علىٰ أنَّ فاطمة «عليها السلام» لا تختص بزمنٍ أو عصرٍ معين.

الملاحم الثورية التي جرت علىٰ لسان فاطمة «عليها السلام» في هذه الخطبة، تدل علىٰ أنها سيدة فدائية، مجاهدة، وقائد لائق للمقاتلين في سبيل الله والمجاهدين في سبيل الحق.

إن لحن سيدة النساء في هذه الخطبة الذي ينفذ إلىٰ أعماق روح

الإنسان وقلبه يبين حقيقة مهمة وهي أنها محدثة بليغة، وخطيب مقتدر، كما هو زوجها أمير المؤمنين علي «ع»، فقد كانت هذه الخطبة الغراء بمستوىٰ نافست فيه خطب عليٍّ «ع» في نهج البلاغة وسارت معها جنباً إلىٰ جنب، حتىٰ أظهرت الأيام أن أبنتها زينب «ع» قد ورثت ذلك من أبيها وأمها معاً، حيث ألقت بخطبها في سوق الكوفة ومجلس يزيد الرعب في نفوس بني أمية المجرمين، وزلزلت أركان قصر الحكومة، ونثرت بذور الثورة في قلوب أهل الكوفة والشام ضد هذه الحكومة الجائرة الجبارة.

أفرزت خطبة فاطمة الزهراء «عليها السلام» العديد من الدروس، فما بينته في أدق مسائل الفلسفة وأسرار الأحكام، وتحليل تأريخيٍّ سياسيٍّ للإسلام، ومقارنةٍ بين العرب في زمن الجاهلية وبين حياتهم بعد ظهور الإسلام تعتبر دروساً عظيمة المعنىٰ، يستفيد منها كل من يسير علىٰ خطىٰ الحقِّ مجاهداً في سبيل الله .

والأهم من ذلك أنَّ فاطمة «عليها السلام» أفصحت عن موقف آل بيت النبيِّ «ص» بالنسبة إلىٰ النظام الحاكم، وبرئت ساحة الإسلام المقدسة من الظلم والجور الذي أرتكب بأسم الإسلام، ولو أنحصرت فائدة الخطبة في هذا الأمر، لكان كافياً!.

أسانيد ووثائق الخطبة

تعد هذه الخطبة واحدةً من الخطب المشهورة التي نقلها علماء الشيعة والسنة الكبار مع سلسلةٍ كبيرةٍ من الأسانيد المعتبرة، خلافاً لما يتصوّره البعض من أنها ضعيفة أو حتىٰ عديمة السند. ومن بين المصادر التي أوردت هذه الخطبة هي:

١ ـ أورد عالم أهل السنّة المشهور ابن أبي الحديد المعتزلي في توضيح رسالة «عثمان بن حيف» في الفصل الأول من «شرح نهج البلاغة» وثائقاً مختلفةً عن خطبة سيدة الإسلام فاطمة «عليها السلام»، ويصرح قائلاً بأن الأسانيد التي أوردتها لهذه الخطبة ليست مأخوذةً من أيٍّ من كتب الشيعة.

ثم يشير إلىٰ كتاب «السقيفة» لـ «أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري» الذي يعدُّ واحداً من كبار محدثي أهل السنّة بأنه نقل هذه الخطبة في كتابه من عدة طرق. ـ وأورد ابن أبي الحديد جميع تلك الطرق في شرح نهج البلاغة، ولغرض الاختصار فقد صرفنا النظر عن ذكرها ـ.

بعدها يضيف، عندما قررت الحكومة علىٰ غصب «فدك» أقبلت فاطمة «عليها السلام» إلىٰ المسجد ما تخرم مشيتها مشية رسول الله، وهناك ألقت خطبتها الغراء.

ثم ينقل ابن أبي الحديد تلك الخطبة المشهورة والمعروفة ـ مع العلم أن هناك اختلافاً جزئياً في عبارات الخطبة من نقلٍ إلىٰ آخر ـ.

٢ ـ أورد «علي بن عيسىٰ الأربلي» هذه الخطبة في كتاب «كشف الغمّة» نقلاً عن كتاب «السقيفة» لأبو بكر أحمد بن عبد العزيز.

٣ ـ أشار «المسعودي» في «مروج الذهب» إلىٰ الخطبة بشكلٍ إجمالي.

٤ ـ «سيد مرتضىٰ» العالم والمجاهد الشيعي الكبير، أورد هذه الخطبة في كتابه «الشافي» نقلاً عن عائشة زوجة رسول الله «ص».

٥ ـ ذكر المحدث المعروف «المرحوم الصدّوق» مقتطفاتٍ منها في كتاب «علل الشرائع».

٦ ـ روىٰ الفقيه المحدث المرحوم الشيخ «المفيد» قسماً من هذه الخطبة.

٧ ـ أورد «سيد بن طاووس» قسماً منها في كتاب «الطرائف» نقلاً عن كتاب «المناقب» لـ «أحمد بن موسىٰ ابن مردويه الأصفهاني» وهو من مشاهير أهل السنّة الذي نقلها بدوره عن عائشة.

٨ ـ وأوردها المرحوم «الطبرسي» صاحب كتاب «الاحتجاج» علىٰ شكل « »[1].

علىٰ كل حال فإن هذه الخطبة التأريخية هي واحدة من خطب أهل البيت «عليهم السلام» المعروفة، وطبقاً لما نقل فإنَّ كثيراً من الشيعة المخلصين أوصوا أبناءهم بحفظ هذه الخطبة، حتىٰ لا يستقر عليها غبار النسيان بمرور الزمن، ولا تكون محطاً للتجاهل والتصغير من قبل الأعداء المغرضين.

ومن اللائق أيضاً أن يحفظ جيل اليوم الشجاع هذه الخطبة وينقلها لأجيال الغد.

(١) بحار الأنوار العلامة المجلسي ج ٨ ص ١٠٨ الطبعة القديمة.

المحاور السبعة لفاطمة الزهراء «عليها السلام»

تتضمن هذه الخطبة الغراء التي قلّ نظيرها سبعة أقسام، وتدور حول سبعة محاور يعقب كل منها هدف واضح، ويجب درس كلٍّ منها بشكلٍ منفصل.

القسم الأول

: تحليل عميق ومختصر لمسائل التوحيد وصفات الخالق وأسمائه الحسنىٰ وهدف الخلقة.

القسم الثاني

: التذكير بمنزلة الرسول «ص» السامية وخواصه ومسؤولياته وأهدافه.

القسم الثالث

: التحدث عن أهمية القرآن المجيد وعمق تعاليم الإسلام، وفلسفة وأسرار الأحكام، والنصائح في هذا المجال.

القسم الرابع

: من خلال تعريف نفسها، تقوم سيدة النساء «عليها السلام بالإفصاح عن خدمات أبيها رسول الله «ص» لهذه الأمة، وهنا تجرهم فاطمة الزهراء «عليها السلام» إلىٰ عصر الجاهلية القريب ليكون لهم عبرة، ومن ثم مقارنته مع وضعهم بعد الإسلام، وٱتخاذ درسٍ من هذا الاختلاف والتغيير.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لقسم الخامس

: تفصح عن الأحداث التي تلت وفاة الرسول الكريم «ص»، وسعي حزب المنافقين لمحو الإسلام .

القسم السادس

: تتحدث عن الحجج الواهية التي اتخذوها ذريعةً في غصب «فدك»، ومن ثم تفنيد تلك الحجج .

القسم السابع

: ومن أجل أن تُتِمَّ حجتها تقوم سيدة النساء «عليها السلام» بٱستنصار الأنصار وأصحاب الرسول «ص» المخلصين، وتنهي خطبتها بتهديدهم بالعذاب الإلهي .

القسم الأول

توحيد الله وصفاته وهدف التكوين

النص:

الحمد لله علىٰ ما أنعم وله الشكر علىٰ ما ألهم والثناء بما قدم، من عموم نعمٍ ابتدأها، وسبوغ آلاءٍ أسداها، وتمام مننٍ والاها!.

جمَّ عن الإحصاء عددها، ونأىٰ عن الجزاء أمدها، وتفاوت عن الإدراك أبدها، وندبهم لاستزادتها بالشكر لاتصالها وأستحمد إلىٰ الخلائق بأجزالها، وثنىٰ بالندب إلىٰ أمثالها.

وأشهد أن لا إله إلاّ الله، وحده لا شريك له، كلمة جعل الإخلاص تأويلها وضمن القلوب موصولها، وأنار في الفكر معقولها.

الممتنع من الأبصار رؤيته، ومن الألسن صفته، ومن الأوهام كيفيته.
إبتدع الأشياء لا من شيءٍ كان قبلها، وأنشأها بلا احتذاء أمثلةٍ امتثلها.
كونها بقدرته وذرأها بمشيئته من غير حاجةٍ منه إلىٰ تكوينها، ولا فائدة له في تصويرها إلاّ تثبيتاً لحكمته، وتنبيهاً علىٰ طاعته، وإظهاراً لقدرته، وتعبداً لبريته وإعزازاً لدعوته ثم جعل الثواب علىٰ طاعته ووضع العقاب علىٰ معصيته، زيادةً لعباده عن نقمته وحياشةً لهم إلىٰ جنته.

التفسير المختصر:

في القسم الأول للخطبة عدداً من المسائل المهمة التي تستحق التدقيق بها:

١ ـ الالتفات إلىٰ الحقيقة التي نعيشها، وهي أنَّ نِعَمَ الله جل وعلا قد أحاطت بكلِّ وجودنا حتىٰ غرقنا فيها، وهذا الأمر يحيي فينا حسَّ الشكر والثناء بل ويجرنا إلىٰ معرفة ذاته الطاهرة.

وهذا ما يعتمد عليه علماء علم الكلام ـ العقائد ـ تحت عنوان «وجوب شكر المنعم» في مسألة وجوب معرفة الله سبحانه وتعالىٰ.

٢ ـ إذا كان الله سبحانه وتعالىٰ قد دعىٰ عباده إلىٰ شكر نِعمه، فليس ذلك من باب الحاجة له، بل ليكتسب العباد من خلاله ـ الشكر ـ لياقةً أكبر ودرجةً أعلىٰ وبالتالي تشملهم نعماً أوفر.

٣ ـ إنّ العباد عاجزون عن أداء حق الشكر لله، لأن التوفيق في التشكر منه هي نعمةٌ بحد ذاتها، كما أن آلات الشكر من ـ فكرٍ ويدٍ ولسان ـ هي أيضاً من نِعم الله، لذا ليس لهم إلا الاعتراف بالعجز.

٤ ـ الإخلاص روح التوحيد، تطهير الروح من دَنس الشرك بالله، ومنح القلب كرهينةٍ لحبه، والخضوع والخنوع لأمره وخلاصة القول تجاهل ونبذ كل ما لا يُرضي الله ونسيان كل شيء سواه!.

٥ ـ في الواقع أن التوحيد قد أخفي في فطرة الإنسان منذ البدء، ويشع هذا النور الإلهي في أعماق كل إنسان، وكل واحدٍ منهم يسمع من باطنه نداء «الله أكبر»، ولهذا فعندما يشتد طوفان الحياة الصعبة وتتمزق أستار الغفلة يظهر هذا الإشعاع بوضوح أكثر من أي وقتٍ آخر، وينجذب الجميع لا إرادياً نحو أنفسهم مرددين «لا إله إلا هو».

٦ ـ لا يمكن درك كُنه ذاته حتىٰ بالتفكر العميق، حيث:

﴿كُلّما مَيّزتُمُوهُ بأوْهامِكمْ في أدَقِّ مَعانِيهِ مخلوقٌ مصنوع مثلُكُم مردُودٌ إليْكُمْ﴾[1] كما لا يمكن معرفة كُنه صفاته، لذا يجب أن نعترف جميعاً بأن:

﴿وَما عَرَفْناكَ حَقَّ معرفَتِك﴾[2].

﴿ما عَبدْناكَ حَقَّ عِبادَتِك﴾[3].

٧ ـ تعد مسألة الخلق والتكوين البدائي واحدةً من المسائل المهمة، فلم تكن هناك مادةٌ مصنوعةٌ من قبل حتىٰ يخلق الله منها هذا العالم، بل أن الخلق والتكوين قد تم من العدم، وقد اختصت هذه الخلقة بذاته الطاهرة حتىٰ صعب علىٰ البعض تصور ذلك.

٨ ـ المسألة المهمة الأخرىٰ في أمر الخلق والتكوين هي أن المصورين ـ الرسامين ـ يعتمدون دائماً في تصويرهم ورسوماتهم علىٰ ما يستلهمونه من الطبيعة، وأحياناً يقومون بخلط أشكالٍ مختلفةٍ ليُبدعوا في صنع شكلٍ جديد، أما الله سبحانه وتعالىٰ فهو المبدع الذي صوّر العالم وجسّمه دونَ تحضيرٍ مسبقٍ أو تمثيلٍ قبلي.

٩ ـ البحث المهم الآخر في هذا القسم من الخطبة التأريخية لسيدة النساء «عليها السلام» هو الغنىٰ المطلق لله عن كل شيء.

من البديهي أن الوجود الذي يمتد من جميع جوانبه إلىٰ المالا نهاية لا تعرف ذاته الطاهرة معنىً للحاجة، لأن «الحاجة» تدل علىٰ «النقص» والنقص ينحصر في الموجودات التي يمكن تصوّرها، لا في ذات الحق الغير (غير) منتهية (المنتهية).

---

(١) أربعين الشيخ البهائي، وبحار الأنوار «للعلامة المجلسي» ج ٦٩ ص ٢٩٣ ـ ٢٩٢.
(٢) أربعين الشيخ البهائي، وبحار الأنوار «للعلامة المجلسي» ج ٦٩ ص ٢٩٣ ـ ٢٩٢.
(٣) : مستدرك الوسائل المحدث النوري ج ١ ص ١٦.

١٠ ـ وأخيراً فإن المسألة المهمة الأخرىٰ التي طُرحت في هذا القسم هي «هدف الخلق»، حيث تلخص سيدة الإسلام ذلك في جُملٍ قصيرةٍ عظيمة المعنىٰ:

أ ـ تبيين وتوضيح الحكمة الإلهية اللاّ محدودة.

ب ـ دعوة العباد إلىٰ طاعته.

ج ـ الإشارة إلىٰ قدرته الغير محدودة.

د ـ دعوة العباد إلىٰ عبوديته.

هـ ـ منح أنبيائه القوت.

هذه هي الأهداف التي بيّنتها فاطمة الزهراء «عليها السلام» في مسألة الخلق، والمُلفت للنظر أن هذه الأهداف ملازمةً لبعضها البعض، فعندما يرىٰ العبد آثار حكمة الخالق وقدرته في عالم الوجود الواسع ينجذب إلىٰ طاعته، ويتوجه إلىٰ عبوديته وينعقد بمدارج كماله.

ومن ناحيةٍ أخرىٰ، يكون للأنبياء نفوذ أكثر وأعمق في قلوب الناس عندما يكون حديثهم مرتكزاً علىٰ نظام خلق عالم الوجود، وتسهل عليهم مسألة الهداية.

بهذا الشكل: لم يخلق الله الكون حتىٰ يستفيد، بل إن الهدف هو أن يجود علىٰ العباد، فإرادته في أن ينتهجوا سبيل الهداية، ودعاهم إلىٰ قربه، ويستزيدوا دائماً من الطاقة (غير المنتهية) في هذا المسير الذي يكسبهم لياقةً أكبر.

القسم الثاني

منزلة الرسول الكريم «ص» السامية، خواصّهُ وأهدافه

النّص:

وأشهد أنّ أبي محمداً عبده ورسوله، إختاره وانتجبه قبل أن أرسله، وسمّاه قبل أن اجتبله، واصطفاه قبل أن ابتعثه، إذ الخلائق بالغيب مكنونةٌ وبستر الأهاويل مصونةٌ، وبنهاية العدم مقرونةٌ.

علماً من الله تعالىٰ بمائل (بمآل) الأمور، وإحاطة بحوادث الدهور، ومعرفةً بمواقع المقدور.

ابتعثه الله إتماماً لأمره وعزيمةً علىٰ إمضاء حكمه وإنفاذاً لمقادير حتمه.

فرأىٰ الأمم فرقاً في أديانها، عُكفاً علىٰ نيرانها، (و) عبادةً لأوثانها، مُنكرةً لله مع عرفانها.

فأنار الله بمحمدٍ (صلّىٰ الله عليه وآله) ظُلمها، وكشف عن القلوب بهمها وجلّىٰ عن الأبصار غممها.

وقام في الناس بالهداية وأنقذهم من الغواية وبصَّرهم من العماية.

وهداهم إلىٰ الدين القويم ودعاهم إلىٰ الطريق المستقيم، ثم قبضه الله

إليه قبض رأفةٍ واختيارٍ ورغبةٍ وإيثارٍ، فمحمدٌ (صلّىٰ الله عليه وآله) عن (مِنْ) تعب هذه الدار في راحةٍ، قد حُفَّ بالملائكة الأبرار، ورضوان الرب الغفار، ومجاورة الملك الجبار.

صلّىٰ الله علىٰ أبي نبيِّه وأمينه علىٰ الوحي وصفيِّه وخيرته من الخلق ورضيِّه والسلام عليه ورحمة الله وبركاته.

* * *

التفسير:

تشير مولاتنا فاطمة الزهراء «عليها السلام» في هذا القسم من خطبتها إلىٰ جزء من المسائل المهمة المتعلقة بشخص رسول الله «ص»، منها:

١ ـ تتحدث عبارتها الأولىٰ عن جوهر الرسول «ص» الممتاز، الشيء الذي أشير إليه في سائر الأحاديث الإسلامية أيضاً وهنا يبرز بحث مهمٌ وهو، هل تختلف النشأة التكوينية للرسول «ص» كلياً عن الآخرين؟ وإذا كان كذلك فإن عصمته تكون جزءً من مستلزمات ذلك الجوهر الطاهر، وطبعاً لا يُعد هذا افتخاراً.

وإذا كان جوهره لا يختلف عن الآخرين، إذاً فما الهدف الذي تبغيه مولاتنا من وراء هذه التعابير؟

الحقيقة هي أن ميزات ومواهب الأنبياء والأئمة تنقسم إلىٰ قسمين، فبعضها ذاتية وبعضها الآخر مُكتسَبة، وبالتدقيق في هذا التركيب الخاص فقد أجيب علىٰ كثيرٍ من التساؤلات.

وبتعبيرٍ آخر، فإن الرب الحكيم الذي حمّل نبيه أعباء تلك المهمة العظيمة منحه استعداداتٍ ذاتية: فقد أعطاه جوهراً ممتازاً، ذكاء متوقداً، إرادةً حديديةً، عزماً راسخاً، وعلماً وفيراً وتشخيصاً صائباً، وإلا فلن يتمكن شخصٌ ضعيفٌ من القيام بهذه الرسالة الكبيرة وسينتفي غرضها.

وهذا الأمر لا يتّصف إلا بالعدالة، فقوة عضلات الساعد تفوق بكثيرٍ

قوة عضلات الجفن، لأن وظيفة الأخيرة هي تنحصر في رفع وخفض جفن العين، في حين أن وظيفة الأخرىٰ هي رفع الأحمال العظيمة وإنجاز الأعمال الثقيلةِ، وخلاف ذلك هو خلافٌ للعدالة.

ومع هذا فإن الجوهر الذاتي للرسول «ص» لم يسلب منه الإرادة والاختيار، فهو أيضاً له القدرة علىٰ المعصية «والعياذ بالله»، علماً أنه لا يرتكب المعصية.

لا تتعجب، فالكثير من الناس العاديين يتمتعون بنفس هذه الحالة بالنسبة لبعض المعاصي، فمثلاً يستطيع كل امرىءٍ أن يظهر عارياً كما ولدته أمه أمام جمعٍ من الناس، أو أن له القدرة علىٰ النوم عارياً في ثلوج ليلة شتاءٍ قارصة، ولكن في نفس الوقت لا تصدر هذه الأفعال إلا من المجانين.

يتمتع الأنبياء والأئمة المعصومون بنفس هذه الحالة بالنسبة لجميع المعاصي.

وهذا يُلفت النظر إلىٰ المسؤولية الكبيرة التي يتحملها المعصومون اتجاه جوهرهم الطاهر، فلا يُقبل منهم أبداً ترك العمل بالأولىٰ.

وتعبير فاطمة «عليها السلام» الذي تقول فيه «عِلماً من الله تعالىٰ بمائل الأمور وإحاطةً بحوادث الدهور»، إنما يُشير إلىٰ تلك النقطة، وهي أن الله يعلم بثقل الرسالة التي ستُلقىٰ علىٰ عاتق النبي «ص» لذا جعل جوهره بهذا المستوىٰ الممتاز.

٢ ـ جاء الرسول «ص» لإتمام الأوامر الإلهية، وتنفيذ أوامره التكوينية.

تشير هذهِ الجملة المعبّرة إلىٰ مسألة ختم النبوة بالرسول الكريم «ص»، وهي أيضاً إشارة إلىٰ مسألة إتمام المواهب التكوينية عن طريق التشريع والأحكام الإلهية.

٣ ـ تعرّج ابنة رسول الله «ص» في هذا المقطع من حديثها علىٰ الوضع

المأساوي للأمم قبل بعث الرسول «ص» وكيفية ابتلائهم بظلمة الخرافات، المجوس في تعظيمهم للنار، والعرب في عبادتهم للأصنام، وسائر الملل في ابتلائها بنوعٍ من الانحراف والتفرقة.

وما أعظم قولها «مُنكِرَةٌ لله مع عرفانها» الذي تشير فيه إلىٰ مسألة «التوحيد الفطري» المكنون في كل البشر.

٤ ـ تشير «عليها السلام» في قسمٍ آخر من بيانها الرائع إلىٰ بركات وجود النبي «ص» وآثار قيامه، وكيف أبعد عن أفق أفكارهم سُحُب الأوهام السوداء المظلمة، وأزال عن قلوبهم صدأ الجهل والخرافات، ومزّق الغشاوة التي حجبت أبصارهم عن مشاهدة الحق، ودعاهم إلىٰ مذهب «الصراط المستقيم» والحد الأوسط الذي يفصل بين الإفراط والتفريط.

ومن أجل فهم ودرك عمق هذا الحديث، يجب إجراء مقارنةٍ دقيقةٍ بين وضع الناس في عصر الجاهلية ووضعهم بعد ظهور الإسلام، حتىٰ يتّضح الواقع الذي بيّنته سيدة الإسلام «عليها السلام» في خطبتها.

٥ ـ من المسائل التي يجدر الإشارة إليها في هذا المقطع من خطبة سيدة النساء «عليها السلام» التأريخية هي الموت الكريم ـ أو العزيز ـ للرسول «ص»:

ذلك الذي كُبِّلت روحه المتألقة بقيود الجسد في هذه الدنيا الفانية، وبعد أن أدىٰ الرسالة، وأتمَّ المسؤولية، كسَّر تلك القيود محلّقاً نحو الحبيب، مرفرفاً في فنائه، آخذاً مكانه بين ملائكة السماء المقرّبين!.

القسم الثالث

أهمية كتاب الله وأسرار وفلسفة الأحكام

النص :

ثم التفتت عليها السلام إلىٰ أهل المجلس وقالت :

أنتم عباد الله نُصْبُ أمره ونهيه، وحملة دينه ووحيه، وأُمناء الله علىٰ أنفسكم، وبُلغاؤه إلىٰ الأمم.

وزعيم حقٌّ له فيكم، وعهدٌ قدّمه إليكم.

وبقيةٌ استخلفها عليكم كتاب الله الناطق، والقرآن الصادق، والنور الساطع، والضياء اللامع، بيِّنةٌ بصائره، منكشفةٌ سرائره، متجليةٌ ظواهره، مغتبطٌ به أشياعه، قائدٌ إلىٰ الرضوان اتِّباعه، مؤدٍّ إلىٰ النجاة استماعه، به تُنال حجج الله المنوَّرة، وعزائمه المفسَّرة، ومحارمه المحذّرة، وبيِّناته الجالية وبراهينه الكافية، وفضائله المندوبة ورُخصه الموهوبة وشرايعه (شرائعه) المكتوبة.

فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشرك، والصلاة تنزيهاً لكم عن الكِبر، والزكاة تزكيةً للنفس، ونماءً في الرزق، والصيام تثبيتاً للإخلاص، والحج تشييداً للدين، والعدل تنسيقاً للقلوب، وطاعتنا نظاماً للملة، وإمامتنا أماناً من الفُرقة (للفُرقة)، والجهاد عزّاً للإسلام، والصبر معونةً علىٰ

استيجاب الأجر، والأمر بالمعروف مصلحةً للعامة، وبرَّ الوالدين وقايةً من السخط، وصلة الأرحام مُنماةً للعدد، والقصاص حقناً للدماء والوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة وتوفية المكاييل والموازين تغييراً للبخس، والنهي عن شرب الخمر تنزيهاً عن الرجس، واجتناب القذف حجاباً عن اللعنة وترك السرقة إيجاباً للعفة وحرَّم الله[1] الشرك إخلاصاً له بالرُّبوبية.

﴿فَاتَّقُوا الله حَقَّ تُقاتِهِ ولا تَمُوتُنَّ إلاّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[2].

وأطيعوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، فإنه ﴿إنَّما يَخشَىٰ الله مِنْ عِبادِهِ العُلَماءُ﴾[3].

* * *

التفسير:

تُشير سيدة الإسلام «عليها السلام» في هذا القسم من الخطبة إلىٰ أمورٍ مهمةٍ أيضاً، منها:

• ١ ـ تعد مسؤولية المسلمين في إبلاغ الرسالة ونشر الإسلام في العالم، والدفاع عن قوانين وتعاليم وقيم الدين الحنيف من المسؤوليات الخطيرة التي لو تقاعس المسلمون عن أدائها كان حقًّا عليهم أن ينتظروا العقاب والجزاء الإلهي، وأن يطردوا من ساحة رحمته الواسعة.

٢ ـ نبهت إلىٰ عظمة القرآن بكونه كتاب ناطق ونور جلي وضوء مشع، حارب وبشدة ظلمات الجهل والتعصب والخرافات.

ذلك الكتاب الذي ظاهره منه الجمال والنور، وباطنه فيه العبرة والمعنىٰ الغزير، وأدلته مقنعة منجيةً.

---

(١) جاء في نسخةٍ أخرىٰ «حرم الشرك».
(٢) سورة آل عمران آية ١٠٢ وجاء في القرآن الكريم «اتّقوا الله».
(٣) سورة فاطر آية ٢٨.

ذلك القائد الذي يضمن لتابعيه النجاة، حيث دعاهم إلىٰ جنةٍ أزلية.

فهو ملك النجاة الذي بيَّن بمنطقه الفصيح أدلة التوحيد، وثبت مبادئ العقيدة ببراهينه النيرة، وأفصح عن البرامج العملية التي يحتاجها المرء في طريق تكامل الإنسانية، فشخص «المباح» من «الممنوع»، «الجيد» من «الرديء» و «الحق» من «الباطل».

٣ ـ أبدعت في تبيان فلسفة الأحكام من خلال عباراتٍ قصيرة، فبدأت بالإيمان حتىٰ الوفاء بالنذر، ومن التوحيد حتىٰ ترك البخس في الميزان، فوصفت كلاً منها بجملةٍ ومقولة. فما أحلىٰ تعبيرها «فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشرك».

يتضح من هذا التعبير أنَّ حقيقة معرفة الله وتوحيده مكنونة في فطرة الإنسان، لهذا جاء الإسلام ليطهره من الملوثات العرضية التي تنتج عن طريق الشرك، كما تغسل الثياب البيض بعد اتساخها ليظهر لونها الأصلي.

شرع الله «الصلاة» ليوطن بها روح التواضع في الناس، ويسحب المتكبرين من منصة الغرور، عن طريق الركوع والسجود، والدعاء في حضرة الخالق.

«الزكاة» تكون سبباً في تحرير روح الإنسان من أسر الدنيا وتعلقه بزخرفها وأموالها، وتنمية ثروات ـ أو رأس مال ـ الأمة من خلال تعزيز البنية المالية للمحرومين.

«الصيام» يجعل الإنسان مسيطراً علىٰ هوىٰ نفسه، ويثبت فيه روح الإخلاص، ويضفي علىٰ أغصان وجوده براعم وزهور التقوىٰ.

«الحجُّ» ذلك التجمع الإسلامي العظيم الذي تثبت فيه أُسس الإسلام، وتعزز فيه قدرات المسلمين في شتىٰ المجالات الفكرية والعلمية والعسكرية والسياسية.

«العدالة الاجتماعية» تغسل الأحقاد من القلوب، وتزيل الاضطرابات

وتقر التنظيم وعن طريق قبول قيادة الهداة المعصومين، يمنح الله المسلمين نظاماً اجتماعياً سالماً منتهجاً خط التوحيد، ويبعد عنهم النفاق والتفرقة.

كذلك في مسائل الجهاد والصبر والاستقامة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما يتعلق بمسائل القصاص والالتزام بالتعهدات، ومحاربة من يبخس الميزان وطهارة الحجور من الفجور وترك شرب الخمر، فقد أشارت سيدتنا إلىٰ كل ذلك مبينةً آثار وعلاج كلٍّ منها.

٥ ـ تعود سيدة الإسلام «عليها السلام» مرةً أخرىٰ إلىٰ مسألة مسؤولية المسلمين أتجاه القرآن المجيد والإسلام، وتدعوهم إلىٰ التقوىٰ، مذكرةً إياهم بعواقب الأمور، حيث تصرُّ عليهم بمراقبة أعمالهم حتىٰ يودعوا دار الفناء وهم مسلمون!.

نوروا أرواحكم وقلوبكم بنور العلم والمعرفة، لأن العلماء فقط يحسون ـ أو يشعرون ـ بالمسؤولية ويخافون الله سائرين علىٰ خطّ التقوىٰ.

القسم الرابع

إعلان موقفها من النظام الحاكم

النص:

ثم قالت أيها الناس إعلموا أنّي فاطمة، وأبي محمد «ص» أقول عوداً وبدأ ولا أقول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شططاً.

﴿ لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُم عَزِيزٌ عَلَيْه ماعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بالمُؤْمِنينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾[1].

فإن تعزوه وتعرفوه تجدوه أبي دون نساءكم، وأخا أبن عمّي دون رجالكم، ولنعم المعزي إليه «ص».

فبلغ بالرسالة صادعاً بالنذارة، مائلاً عن مدرجة المشركين ضارباً بثجبهم، آخذاً بأكظامهم داعياً إلىٰ سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة، يكسر الأصنام وينكت الهام، حتىٰ انهزم الجمع وولوا الدبر، حتىٰ تفرىٰ الليل عن صبحه، وأسفر الحقُّ عن محضه، ونطق زعيم الدين، وخرست شقاشق الشياطين، وطاح وشيظ النفاق، وانحلت عقد الكفر والشقاق وفهتم بكلمة الإخلاص في نفر من البيض الخماص.

وكنتم علىٰ شفا حفرةٍ من النار، مذقة الشارب ونهزة الطامع، وقبسة

---

(١) سورة البراءة آية ١٢٩.

العجلان، وموطيء الأقدام، تشربون الطرق، وتقتاتون الورق، أذلةً خاسئين، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم.

فأنقذكم الله تبارك وتعالىٰ بمحمدٍ «ص» بعد اللتيا والتي، بعد أن مُنيَ ببهم الرجال، وذؤبان العرب ومردة أهل الكتاب كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله، أو نجم قرن للشيطان، أو فغرت فاغرة من المشركين قذف أخاه في لهواتها، فلا ينكفأ حتىٰ يطأ صماخها بأخمصه، ويخمد لهبها بسيفه، مكدوداً في ذات الله، مجتهداً في أمر الله قريباً من رسول الله، سيداً في أولياء الله، مشمراً ناصحاً، مجداً كادحاً وأنتم في رفاهيةٍ من العيش، وادعون فاكهون، آمنون تتربصون بنا الدوائر، وتتوكفون الأخبار، وتنكصون عند النزال، وتفرون عند القتال.

* * *

التفسير:

تضمن هذا القسم أيضاً حقائق كبيرة:

١ ـ من أكون؟

تقوم بكشف هويتها للحاضرين قبل كلِّ شيءٍ، وتفرغ ما بأيديهم من حججٍ وأعذارٍ، حتىٰ لا يدّعي أحد بإني لم أعرف بنت النبيّ «ص»، وإلا سارعت لنصرتها.

تركز بشكلٍ خاصٍ علىٰ نسبتها للنبيّ «ص»، وتتكلم عن ٱرتباطها بعليٍّ «ع»، ثم تؤكّد علىٰ أن ما أنطلق به هو عين الحقيقة، لا أتحدث جزافاً، ولا ينطق لساني بغير حسابٍ ولو بكلمة، فٱستمعوا جيداً لما أقول، وعوا مسؤوليتكم العظيمة ٱتجاه هذه الحادثة!.

٢ ـ الألم الكبير

بعدها تذكر بعلاقة رسول الله «ص» بهم وكيف كان يتألم لآلامهم، وأنه

كان شريكاً لهم في غمومهم، مستندةً علىٰ الصفات الخمسة التي وصف القرآن المجيد نبيه بها في إحدىٰ آياته الشريفة:

﴿ لَقد جاءَكُم رَسولٌ مِن أنفُسِكُمْ عزيزٌ عليهِ ما عنِتُّمْ حَريصٌ عليْكُم بالمؤمنينَ رؤوفٌ رحيم ﴾[1] تلك الصفات التي شاهدها وعرفها الأصحاب في رسول الله «ص».

٣ ـ الزحمات التي أجهدت النبي «ص»

ثم تذكر بالمعاناة الجسيمة التي مرت بالرسول «ص» وكيف أنه قام منفرداً بإبلاغ رسالة ربه العظيمة، دون أن يجد الانحراف سبيلاً إلىٰ نفسه، مرغ أنوف المتعنتين بالتراب، وحطم أدمغة المتكبرين، وكان سلاحه المنطق والدليل والموعظة والحكمة لمن طلب الحق وٱستقصىٰ عنه، إلىٰ أن حطم قدرة المشركين، ودمر معابد الأصنام، وتفرّق أعداء الله، فٱنزالت الظلمات وشعّ النور، وفرت الخفافيش، وتمكن جمع من الناس أن يرددوا نغمة التوحيد «لا إله إلاّ الله» علناً في ديار الكفر.

٤ ـ أنتم هٰكذا كنتم!

تقوم فاطمة الزهراء «عليها السلام» بتذكيرهم بذلك اليوم الذي كنتم فيه مجموعةً مؤمنةً صغيرةً تتصارع في وسط طوفانٍ صعبٍ وموحش، فمن ناحيةٍ تداعب وسوسات مراحل الشرك وعبادة الأصنام مخيلاتكم أحياناً، وتجركم إلىٰ شفا جرف نار جهنم، ومن ناحيةٍ أخرىٰ فإن أعدائكم الأقوياء الظالمين قد أحاطوكم من كلِّ جانب، يتربصون بكم الدوائر ليسحقوكم بأيديهم وأرجلهم بطرفة عين، وكنتم تحت حصارٍ رهيب، ليس لكم إلا الماء الآسن والغذاء الرديء، تخافون من مستقبلكم المجهول.

لكن، شاء الله أن يكسر أسنان هؤلاء الذئاب المصاصين للدماء،

(١) سورة البراءة آية ١٢٩.

ويضرب رؤوس هذه الأفاعي بالحجر، ويسلط هذه الفئة القليلة المستضعفة عليها، وهو علىٰ ما يشاء قدير فعال لما يريد.

لم يمضِ وقت حتىٰ خمدت نيران الفتن، وسكنت الأعاصير، وفرت العفاريت، واختفىٰ اللصوص وقطاع الطرق الذين كانوا يستفيدون من ظلمات ليالي الجاهلية في بعد أن أشرق العالم بنور شمس الإسلام.

نعم، ذكرت فاطمة «عليها السلام» الحاضرين بتلك اللحظات الحساسة التي أثقلت كاهل المؤمنين وجعلت يومهم كقرنٍ من الزمان، حتىٰ لا يتناسوا نِعَمَ الله الجزيلة، ولا ينكروا المواهب الإلهية، ويسعون في استمرارية وديمومة هذا الخط الإلهيِّ والرساليِّ العظيم ولا يستسلموا لما يروجه ويحيكه الأعداء.

٥ ـ خدمات عليّ «ع»:

تذكر ابنة النبي «ص» في وسط حديثها بما قدمه أمير المؤمنين علي «ع» من خدماتٍ لهذه الأمة، وكيف أن النبيَّ «ص» كان يرسله لمواجهة الحوادث الخطرة والتصدي لها، وهو يقوم لها مؤثراً بنفسه، مضحياً وفدائياً، فينقضُّ علىٰ الفتن فيخمدها ويعود منتصراً، أهوىٰ برؤوس المتكبرين إلىٰ الأرض بسيفه، ومرغ هامات الطواغيت بالتراب، وكان ناصراً ومساعداً للرسول «ص» وحامياً ومدافعاً في كلِّ مكان.

نعم فمثل هذا يستطيع أن يُديم خطَّ هذا الانقلاب الكبير ويمنع انحرافه.

القسم الخامس

هيجان الطوفان بعد النبي «ص»

النص:

فلما اختار الله لنبيه [صلىٰ الله عليه وآله] دار أنبيائه ومأوىٰ أصفيائه، ظهر فيكم حسيكة النفاق، وسمل جلباب الدين، ونطق كاظم الغاوين ونبغ خامل الأقلين وهدر فنيق المبطلين، فخطر في عرصاتكم، وأطلع الشيطان رأسه من مغرزه، هاتفاً بكم، فألفاكم لدعوته مستجيبين، وللغرة فيه ملاحظين، ثم آستنهضكم فوجدكم خفافاً وأحمشكم فألفاكم غضاباً، فوسمتم غير إبلكم، وأوردتم غير شربكم، هذا والعهد قريب، والكلم رحيب، والجرح لما يندمل، والرسول لما يقبر، ابتداراً زعمتم خوف الفتنة، ﴿ ألا في الفِتْنَةِ سَقَطوا وإنَّ جَهَنَّمَ لمُحيطَةٌ بالْكافِرينَ ﴾[1] فهيهات منكم؟ وكيف بكم؟ وأنَّىٰ تؤفكون؟ وكتاب الله بين أظهركم أموره زاهرة [ظاهرة] وأعلامه باهرة، وزواجره لايحة، وأوامره واضحة، قد خلفتموه وراء ظهوركم أرغبةً عنه تريدون؟ أم بغيره تحكمون؟ بئس للظالمين بدلا.

﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقبَلَ مِنْهُ وَهُوَ في الآخِرَةِ مِنَ الخاسِرينَ ﴾[2].

---

(١) سورة البراءة آية ٤٩.
(٢) سورة آل عمران آية ٨٥.

التفسير :

١ ـ الحركات المشكوكة وخطوط الانحراف

تشير سيدة الإسلام «عليها السلام» في هذا القسم من خطبتها إلىٰ بقايا أحزاب الجاهلية والمنافقين الذين ضُيِّقَ الخناق عليهم في زمن رسول الله «ص» فأخفوا رؤوسهم في جحورها، ويزحفون في أوكارهم.

وفجأةً خرجت حشرات الأرض هذه من جحورها بعد وفاة رسول الله «ص»، وظهرت الخفافيش التي توارت عن الأنظار بسبب هيبة وجود النبي «ص» المشع ثانيةً وأصبحت تعبث في الميدان!، وبدأت التحركات المشكوكة وعادت خطوط الانحراف تظهر من جديد ودخل المتلاعبون بالسياسة ساحة المعركة!.

٢ ـ تلبية البعض لدعوة الشيطان!

من هنا تبدأ حسرة بنت النبي «ص» العميقة بسبب تلبية جمع غفير لدعوة الشيطان، سائرين خلف أصوات البوم المشؤومة، فأصبحوا آلةً بيد حزب الشيطان والمنافقين الذين عميت قلوبهم، ورغم أن كفن الرسول «ص» لم يزل مبتلاً ولم يزل صوت آذان مؤذنه يدوي في الآذان وصرخة تكبيره ترن في القلوب حتىٰ ظهرت حركات الردّة.

بأستثناء البسطاء ومريضي القلوب فإنَّ مجموعةً قد أتخذت من التقية حجة لسكوتهم خوفاً من أن الكلام يوقع الفرقة والاختلاف بين الجمع، وصاروا متفرجين لهذا المشهد أو موافقين لأحداثه، حتىٰ لا يبرز اختلاف للوجود في حين آن موقفهم هذا هو السبب في ذلك الانشقاق والانحراف الكبيرين!.

٣ ـ اللجوء إلىٰ القرآن

ثم يصرخ المنادي الإلهي المتمثل بفاطمة الزهراء «عليها السلام» بهم منبهةً:

أين أنتم؟ وإلىٰ أين تولون أيها الضالون؟ تذكرهم بحديث أبيها «ص»: «إذا ٱلتبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فمن جعله أمامه قاده إلىٰ الجنة ومن تركه ساقه إلىٰ النار!».

تصيح بهم بأن لا تتركوا القرآن، فأوامره ونواهيه واضحة، وإرشاداته في مسألة الخلافة بعد النبي «ص» بائنة، كما أشار إلىٰ ما سيحصل بعد وفاته، خلاصة القول أنه لم يُبقِ شيئاً إلاَّ وأظهر خفاياه.

إنذار أصحاب النبي «ص»

سيدة الإسلام «عليها السلام»، صرخة الزمان المدوية، تحذرهم قائلةً: إن تركتم تذكار النبيِّ «ص» العظيم «القرآن» وتمسكتم بغيره، وقدمتم أفكاركم العاجزة علىٰ تعاليم الإسلام، وبحجة حماية الأفكار أو خوفاً من الوقوع تجعلون أنفسكم حكاماً علىٰ القرآن، لا محتكمين لأوامره، عندها سيصيبكم الضرر الأكبر والخسران المبين.

سوف لن تخمد نار الفتنة فيكم، وستبلون بما تخافونه، وستختفي روح الإسلام من بينكم، فلن يبقىٰ سوىٰ القشر دون اللب والمظهر دون المحتوىٰ.



القسم السادس

قصة غصب فدك وحجج الغضب والرد الساحق لها

النص:

ثم لم تلبثوا إلا ريث (إلىٰ ريث) أن تسكن نفرتها، ويسلس قيادها، ثم أخذتم تروون وقدتها وتهيجون جمرتها، وتستجيبون لهتاف الشيطان الغوي وإطفاء أنوار الدين الجلي وإخماد سنن النبي الصفي.

تسرون حسواً في ارتغاءٍ، وتمشون لأهله وولده في الخمر والضراء، ونصبر منكم علىٰ مثل حز المدىٰ، ووخز السنان في الحشا.

وأنتم الآن أتزعمون أن لا إرث لنا؟

أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون؟[1]

أفلا تعلمون؟ بلىٰ تجلىٰ لكم كالشمس الضاحية أني ابنته.

أيها المسلمون أأغلب علىٰ إرثيه؟ يا ابن أبي قحافة! أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي؟ لقد جئت شيئاً فريّا.

أفعلىٰ عمدٍ تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم إذ يقول:

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ﴾[2].

---

(١) سورة المائدة آية ٥.

(٢) سورة النّمل آية ١٦.

وقال فيما اقتص من خبر يحيىٰ بن زكريا إذ قال:

﴿فَهَبْ لي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً يَرِثُني وَيَرِثُ مِن آلِ يَعْقُوبِ﴾ [(١)] .

وقال:

﴿وَأُولُوا الأرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ في كتاب الله﴾ [(٢)] .

وقال:

﴿يُوصِيكُمُ الله في أَوْلادِكُم لِلّذكَرِ مِثلُ حَظِّ الأنثَيَيْنِ﴾ [(٣)] .

وقال:

﴿إنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيّةُ لِلْوالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالمعْرُوفِ حَقّاً عَلىٰ المُتّقِينَ﴾ [(٤)] .

وزعمتم أن لا حظوة لي ولا إرث من أبي؟ ولا رحم بيننا؟ أفخصكم الله بآيةٍ أخرج منها أبي؟ أم هل تقولون إن أهل ملتين لا يتوارثان؟ أولست أنا وأبي من أهل ملةٍ واحدةٍ أم أنتم أعلم بخصوص القران وعمومه من أبي وابن عمي؟

فدونكها مخطومةً مرحولة، تلقاك يوم حشرك، فنعم الحكم الله والزعيم محمدٍ (صلىٰ الله عليه وسلم)، والموعد القيامة وعند الساعة يخسر المبطلون ولا ينفعكم إذ تندمون،

﴿وَلِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُون﴾ [(٥)] .

---

(١) سورة مريم آية ٥ ـ ٦ .
(٢) سورة الأنفال آية ٧٥ .
(٣) سورة النساء آية ١١ .
(٤) سورة البقرة آية ١٨٠ .
(٥) سورة الأنعام آية ٦٧ .

﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخزِيهِ وَيحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ﴾[1] .

* * *

التفسير :

١ ـ إحياء المذهب الجاهلي

بلغ حديث فاطمة «عليها السلام» أوجه في هذا القسم مدلاً علىٰ ألم وهيجانٍ شديدين، فحرقة قلبها متأتية من ظهور أحكام الجاهلية مرةً أخرىٰ حيث أن الأنثىٰ لم تكن لتورث في زمن الجاهلية، أما الإسلام فقد أبطل ذلك بعد مجيئه مقراً بحصة وسهم جميع الأقارب في إرث المسلم، استناداً إلىٰ ذلك فإن الموضوع لم يكن مقتصراً علىٰ مسألة «فدك» فحسب، بل إن المهم في الدرجة الأولىٰ هو خطر إحياء سنن الجاهلية ومحو سنن الإسلام، لذا قامت في هذا القسم بتوجيه اللوم الشديد لهم، مكثفةً حملاتها عليهم.

الأعجب من كل ذلك هو تعجيلهم في إنجاز هذا العمل بشكلٍ أدرك معه الجميع أن مسألة «غصب فدك» لم تكن مسألةً عادية، فقد سعوا إلىٰ هذا الغصب قبل أن يُحكموا قبضتهم علىٰ الخلافة، وبتعبيرٍ آخر فإنهم فكروا بذلك قبل أن تغيب شمس ذلك اليوم وهذه نقطة مهمة في فهم عمق هذه المؤامرة الكبيرة.

٢ ـ إشارة إلىٰ أدلة الخصم

أشارت بنت النبي «ص»، هذه الخطيبة البارعة والحكم العالم بصورةٍ ضمنيّةٍ إلىٰ دلائلهم في ذلك الغصب، حيث ادعوا أن الرسول «ص» قال **«نحن معاشر الأنبياء لا نورث»**.

بعدها قامت بالرد علىٰ تلك الحجج بأجوبةٍ منطقيةٍ وقاطعةٍ مستدلةً

---

(١) سورة هود آية ٣٩.

بشواهد من عموم القرآن وخصوصه، فتثبت ومن خلال عددٍ من آيات الكتاب زيف هذا الحديث الذي يجب ضربه بعرض الحائط!

٣ ـ تغلق فاطمة «عليها السلام» جميع طرق الفرار بوجوههم

لقد استخدمت هذه العالمة الكبيرة حربة الإستدلال في هجومها علىٰ خصمها بشكلٍ لم تُبق له سبيلاً للفرار.

تقول «عليها السلام»: إذا كان عذركم هو الحديث المجعول **«نحن معاشر الأنبياء لا نورث»**؟

فإن الرد عليه هو ما نصت به آيات القرآن التي ذكرتها لكم، وإذا كان عذركم منعنا إرثنا فاعلموا أن جميع الأبناء يرثون آباءهم وأمهاتهم في الإسلام، باستثناء من لم يكن علىٰ دين ومذهب أبيه، بمعنىٰ أن الأبناء الكفرة[1] لا يرثون من أبٍ وأمٍّ مسلمين، فهل تعتقدون باختلاف ديني ومذهبي عن دين ومذهب والدي؟!!

وإذا كانت رواسب الجاهلية وأحكامها التي تنص علىٰ عدم توريث البنات قد علقت في أذهانكم، فإن هذه الخرافات قد تعطلت ولا سبيل للعودة إلىٰ ليالي الظلمة بعد طلوع الفجر المشرق.

٤ ـ هل أنتم أعلم بالقرآن أم أهل بيت الوحي «عليهم السلام»؟

تغلق فاطمة الزهراء «عليها السلام» هذا الطريق عليهم أيضاً حيث يقولون نحن نفهم من القرآن كذا وكذا، فتخاطبهم بالقول: أي مكانٍ من القرآن؟ وبأي تفسير؟ ومن هو أجدر وأليق لهذا الأمر من ابن عمي علي «ع» الذي تربّىٰ في أحضان الوحي، وهو من كُتّابه، كما أنه سمع القرآن وتفسيره من شفتي الرسول «ص»؟

---

(١) الكافر: كلُّ مَن دانَ بغير الإسلام.

الحقيقة هي، أن القرآن قد نزل في بيتنا و«أهل البيت أدرىٰ بما في البيت».

خلاصة القول، فإنها تشير في مكانٍ واحدٍ إلىٰ مسألة ميراث سليمان «ع» من أبيه داوود «ع» وميراث يحيىٰ «ع» من أبيه زكريا «ع» الذين كانوا جميعاً من الأنبياء الكبار، وتقول «عليها السلام» ـ علىٰ خلاف هذه الرواية المجعولة ـ يصرح القرآن بأن كلاًّ من الأبناء قد ورث أباه، ونعلم جيداً أن كل روايةٍ تخالف القرآن يسقط اعتبارها.

وتستدل أيضاً بعموم القرآن، حيث تنص الآية الشريفة ﴿يُوصيكُم الله في أوْلادِكُم لِلّذكَرِ مِثلُ حظِّ الأنْثَيين﴾[1] وكذلك ﴿أوْلُوا الأرْحامِ بَعْضُهم أوْلىٰ بِبَعْضٍ في كتابِ الله﴾[2]، فتستفهم قائلةً:

هل يمكن للخبر الوحيد المخالف لعموم القرآن وخصوصه أن يكون ذا قيمةٍ وأهميةٍ ـ ولو بمقدار سم الخياط ـ في محكمة العدل الإسلامي؟

بعدها تعدد جميع الطرق ومنها التي تمنع الإرث ومن ثم تقوم بتفنيدها.

٥ ـ لكم ما تريدون ـ ولكن...

لكي لا يتصور الحاضرون أن تمسكها بفدكٍ نابعٌ من كونه متصفاً بصفةٍ ماديةٍ دنيويةٍ، لا بصفةٍ إلهية، فقد أضافت هذه السيدة المجاهدة قائلة: «الآن وبعد أن آل الحال إلىٰ ما آل فخذوها طرّةً، وافعلوا ما بدا لكم، لكن اعلموا أنكم ستقفون في محكمةٍ عظيمةٍ تختلف عن سائر المحاكم الدنيوية، فالله «سبحانه وتعالىٰ» هو الحاكم فيها، والرسول «ص» هو المدعي عليكم في تلك المحكمة، وموعدها يوم القيامة «يوم البروز» يوم تتّضح كل خافية!».

---

(١) سورة النساء آية ١١.
(٢) سورة الأنفال آية ٧٥.

فإن أعددتم جواباً لذلك اليوم فتوكلوا علىٰ الله، وإلا فاستعدوا للجزاء الإلهي.

حينها ستندمون حتماً علىٰ ما فعلتم ولكن سوف لن ينفعكم هذا الندم أبداً لأن ملف الأعمال قد أغلق، ولا سبيل للرجوع إلىٰ الماضي.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القسم السابع

طلب المدد من الأنصار

النص:

ثم رمت بطرفها نحو الأنصار فقالت:

يا معشر الفتية (النقيبة) وأعضاد الملة وحضنة الإسلام، ما هذه الغميزة في حقي والسنة عن ظلامتي.

أما كان رسول الله صلىٰ الله عليه وآله أبي يقول: «**المرء يحفظ في ولده**».

سرعان ما أحدثتم وعجلان ذا إهالة، ولكم طاقةٌ بما أحاول وقوةٌ علىٰ ما أطلب وأزاول.

أتقولون مات محمد صلىٰ الله عليه وآله فخطبٌ جليلٌ إستوسع وهنه واستنهر فتقه، وانفتق رتقه.

وأظلمت الأرض لغيبته، وكسفت النجوم لمصيبته، وأكدت الآمال، وخشعت الجبال، وأضيع الحريم، وأزيلت الحرمة عند مماته.

فتلك والله النازلة الكبرىٰ، والمصيبة العظمىٰ، لا مثلها نازلةٌ، ولا بائقةٌ عاجلةٌ، أعلن بها كتاب الله جلَّ ثناؤه في أفنيتكم وفي ممساكم ومصبحكم هتافاً وصراخاً وتلاوةً وألحاناً، ولقبله ما حل بأنبياء الله ورسله

حكمٌ فصلٌ، وقضاءٌ حتمٌ.

﴿وَما مُحمَّدٌ إلاّ رَسُولٌ قدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفإِنْ ماتَ أوْ قُتِلَ انقلَبْتُم عَلىٰ أعقابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ الله شيئاً وَسيَجزي الله الشّاكِرينَ﴾[1].

إيهاً بني قيلة! أأُهضم تراث أبي وأنتم بمرأىٰ مني ومسمعٍ ومنتدىً ومجمع؟ تلبسكم الدعوة وتشملكم الخبرة وأنتم ذو العدد والعدّة والأداة والقوة، وعذركم السلاح والجنة، توافيكم الدعوة فلا تجيبون، وتأتيكم الصرخة فلا تغيثون (تعينون)، وأنتم موصوفون بالكفاح، معروفون بالخير والصلاح، والنخبة التي انتخبت والخيرة التي اختيرت.

قاتلتم العرب، وتحملتم الكد والتعب، وناطحتم الأمم وكافحتم البهم، لا نبرح أو تبرحون، نأمركم فتأتمرون، حتىٰ إذا دارت بنا رحىٰ الإسلام ودر حلب الأيام، وخضعت نعرة الشرك، وسكنت فورة الأفك، وخمدت نيران الكفر، وهدأت دعوة الهرج، واستوثق (واستوسق) نظام الدين!

فأنىٰ حرتم بعد البيان؟ وأسررتم بعد الإعلان؟ ونكصتم بعد الإقدام؟ وأشركتم بعد الإيمان؟

﴿ألاّ تُقاتِلونَ قَوْماً نَكَثُوا أيْمانَهُم وَهَمُّوا بإِخْراجِ الرَّسولِ وَهُمْ بَدَؤكُمْ أوّلَ مَرّةٍ أتَخْشَوْنَهُم فالله أحقُّ أنْ تَخْشَوْهُ إنْ كُنْتُم مُؤْمِنينَ﴾[2].

ألا قد أرىٰ أن قد أخلدتم إلىٰ الخفض، وأبعدتم من هو أحق بالبسط والقبض، قد خلوتم بالدعة ونجوتم من الضيق بالسعة، فمججتم ما وعيتم، ودسعتم الذي تسوّغتم.

---

(١) سورة آل عمران آية ١٤٤.

(٢) سورة البرائة آية ١٣.

﴿فإنْ تَكْفُرُوا أَنْتُم وَمَنْ في الأَرْضِ جَميعاً فإِنَّ الله لَغنيٌّ حَميدٌ﴾[1] .

ألا وقد قلت ما قلت علىٰ معرفةٍ مني بالخذلة التي خامرتكم والغدرة التي استشعرتها قلوبكم، ولكنها فيضة النفس، ونفثة الغيض (الغيظ) وخور القناة وبثة الصدر وتقدمة الحجة.

فدونكموها فاحتقبوها دبرة الظهر نقيبة (نقبة) الخف، باقية العار، موسومةً بغضب الله وشنار الأبد، موصولة بنار الله الموقدة التي تطلع علىٰ الأفئدة، فبعين الله ما تفعلون.

﴿وَسيَعْلَمُ الّذينَ ظَلَمُوا أيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾[2] .

وأنا ابنة نذيرٍ لكم بين يدي عذابٍ شديدٍ، فاعملوا ﴿إنّا عامِلُونَ وانْتَظِرُوا إنّا مُنتَظِرُونَ﴾[3] .

التفسير:

١ ـ دور الأنصار الفاعل في تحقيق أهداف الإسلام

تشيد سيدة الإسلام «عليها السلام» في هذا القسم من حديثها بطائفة الأنصار، موصفةً إياهم بالمجموعة المختارة وساعد الإسلام القوي وحامي الرسول «ص» المخلص، كما أظهرت لهم الشكر والثناء بسبب ما بذلوه في خدمة الرسول «ص» منذ دخوله المدينة وما تحمّلوه من عناءٍ ومصاعب قبل ذلك في سبيل الإسلام.

نعم، كان للأنصار دورٌ مؤثرٌ في تقدم الإسلام في الحرب والسلم وفي جميع مراحله، وبالرغم من ذلك فقد كانوا أقل توقعاً وطمعاً من المهاجرين،

---

(١) سورة ابراهيم آية ٨ جاءَ في القرآن «إن تكفروا».
(٢) سورة الشعراء آية ٢٢٧.
(٣) سورة هُود آية ١٢١ ـ ١٢٢.

وربما طوىٰ تاريخ الإسلام مسيراً أفضل فيما لو صُيِّرت لهم الأمور. مما لا شك ولا ريب أن في المهاجرين أشخاصاً مخلصين لم يتوانوا أبداً في إيثارهم وتضحياتهم، لكن تغلغل المتلاعبين بالسياسة في أوساطهم غير الوضع كلياً.

٢ ـ هجوم فاطمة الزهراء «عليها السلام» علىٰ الأنصار

لكن سخط سيدة الإسلام «عليها السلام» عليهم هو أن لماذا التزمت هذه السواعد القوية وأصحاب الرسول «ص» القدماء الصمت في مقابل الظلم الذي حل بآل بيته، فقد أقروا بسكوتهم صحة تلك المظالم، ولم يراعوا ذمة النبي «ص» في أهل بيته، والأهم من ذلك مؤازرتهم للغاصبين وموقفهم المساعد من تغيير محور الخلافة بعد اشتباكٍ قصيرٍ ثم بنفعهم، حيث قبضوا ثمناً لذلك السكوت، وذلك ذنبٌ لا يغتفر!

٣ ـ لا يموت الإسلام بوفاة الرسول «ص»!

بين القرآن المجيد من ناحيةٍ والرسول الكريم «ص» من ناحيةٍ أخرىٰ حقيقةً مهمةً ألا وهي أن المذهب الإسلامي لا يعتمد علىٰ شخصٍ معينٍ، فهو مذهب أزلي مستمرٌ إلىٰ يوم القيامة ولا ينتهي بوفاة النبي الكريم «ص»، لأنه كان انقلاباً قائماً علىٰ أساس ديني، دينٌ إلهيٌّ سماوي، الدين الذي يؤمّن احتياجات الناس علىٰ مر العَصور، ولا بد لهذا الدين أن يبقىٰ ويدوم.

ولكن رغم كل ذلك، فإن قسماً من الناس ممن ينقصه بُعد النظر وتهمّه المظاهر، يتصور أن الضربة الموجعة والمصيبة المؤلمة التي ألمّت بالعالم الإسلامي جراء وفاة النبي «ص» والفراغ الذي نتج عن فقد المحيط الإسلامي لهذا القائد العظيم قد وضع خاتمةً لذلك الإسلام، وانطوت أيامه وأحداثه! مما حدىٰ بهم ذلك إلىٰ غلق شفاههم في مقابل تلك النعرات الجاهلية.

تصرخ فاطمة «عليها السلام» مذكرةً إياهم بآيات القرآن التي تتحدث عن أزلية وبقاء الإسلام، تُنبّه الغافلين وتوقظهم من غفلتهم، وتعرّف المسلمين مسؤولياتهم الثقيلة في تلك المرحلة الحساسة.

٤ ـ لماذا التزمتم الصمت في مقابل سحق الأحكام الإسلامية؟

توبّخُ في مقطعٍ آخر من حديثها «عليها السلام» الأنصار بشدّة، بأن سكوتكم علىٰ أحداثِ «فدك»، الأحداث التي تُعد حلقةً من سلسلة انحرافاتٍ متواصلة، وشرارةً من شعلةٍ متوهّجة، وقطرة من تيارٍ جارفٍ، سيؤدي ذلك في النهاية إلىٰ إحياء طيفٍ مضادٍّ للإسلام!

يُظهر الناس حيرتهم متسائلين: إذا كان صحيحاً ما يقال من أن قانون الإسلام هو الحق، فلِم لا يسري حكمه علىٰ أقرب أقرباء النبي «ص»؟ فعندما يسحقوا مثل هذا الحكم الصريح وأنتم تقرّون ذلك بسكوتكم، صار من السهل عليهم أن يسحقوا سائر الأحكام الإسلامية!

يجب أن تنظروا لهذه المسألة علىٰ أنها «عمليةٌ مدبّرة ـ أو واقعةٌ مدبّرة» لا بعنوان أنها «واقعة مقطعية عرضية»، وتصوروا أن ما هي الأحداث الأخرىٰ التي خُبأت خلف هذه الحادثة؟ وما ثورتي وهيجاني إلا لهذا السبب!

لا تتصوّروا أن «حمايتكم للمظلومين من أمثالي» توجد الفرقة بين صفوف الأمة الإسلامية، بل علىٰ العكس، فإن سكوتكم يوقع كل شيء تحت طائلة السؤال، فلو ادّعيتم الضعف والعجز فقد كذبتم، لأن كثيراً من الإمتيازات كانت في اختياركم منذ البداية، وهي الآن أكثر، إضافةً إلىٰ ذلك فلماذا تلقون بآيات القرآن الصريحة التي تنص علىٰ ﴿ألاَ تُقاتِلونَ قوماً نَكَثُوا أيْمانَهُم وَهَمُّوا بِإخراجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدؤُكُم أوّلَ مَرّةٍ أتَخْشَوْنَهُم فالله أحَقُّ أن تَخْشَوْهُ إنْ كُنتُم مؤمنينَ﴾[1] خلف ظهوركم؟ وتخافونهم بدل أن تخافوا الله؟

---

(١) سورة التوبة آية ١٣.

٥ ـ البحث عن الرّفاه والراحة

بعدها تغوص هذه المعلمة القديرة في أعماقهم لتستخرج سبب سكوتهم الأصلي، فتشير إلىٰ أن المسألة هي أن استولىٰ عليكم حب الرفاه وطلب الراحة، واستسلمت أجسادكم للإستراحة، فرغم أنكم شاهدتم بأعينكم تنحية وتبعيد من هو أحق وأليق بالخلافة من غيره عنها إلا أنكم التزمتم جانب الصمت؟

نعم، يستمر تقدم الإنقلاب الواقعي إلىٰ الوقت الذي يحتفظ الأشخاص بالروح الإنقلابية ولم يخضعوا لميولهم الدنيوية، وإلا ركعوا أمام المصاعب والمشاكل، غير مبالين بما يمر بهم من حوادث مرّة، وبالتالي يخبت نور الانقلاب!

٦ ـ أعلم أن لا حيلة لكم وأنتم بهذه الروحية!

تمتلك هذه السيدة الشجاعة بصيرةً نافذةً في أدق الأمور، فهي تقوم برفع الستار عن حقائق هامة، فتخاطب طائفة الأنصار في هذا المقطع مشيرة إلىٰ هذا المعنىٰ: غايتي هي إتمام الحجة عليكم لا غير، فليس لي فيكم أملاً يُرتجىٰ، فبعد أن التزمتم الصمت في مسألة «الخلافة» كان من الطبيعي أن ترفعوا نفس الشعار في مسألة «فدك»، لكن التاريخ الإسلامي سيسجل حديثي لهذا اليوم، وستحكم الأجيال القادمة فيما بيننا، هذا بالإضافة إلىٰ أنني أردت أن أزيل عن قلبي عُقد الهم، وأرمي خارجاً دماء صدري حتىٰ يعلم الجميع ما أعانيه من آلام منغّصة للروح!

٧ ـ انتظروا الأحداث المؤلمة

تشير بطلة الإسلام في هذا المقطع إلىٰ نتيجة أفعالهم، فتقول منبهةً

إياهم: أتظنون أنّ ثمن هذا السكوت، وطلب الراحة ذاك، وهذا الموقف المتفرّج، وهذه اللامبالاة سيكون رخيصاً، بل ستقطفون ثمارها المُرة في هذه الدنيا علىٰ أيد حكوماتٍ جائرة ـ مثل بني أمية وبني العباس ـ والتي سوف لن ترحم نسلكم القادم وكذا القرآن والإسلام.

٨ ـ لقد أنذر، وأنا أنذر أيضاً!

تقول سيدة النساء فاطمة «عليها السلام» نفس ما كان يقوله الأنبياء للمجرمين، حيث تنذرهم:

﴿إنّا عاملونَ وَٱنتظِروا إنّا منتظِرون﴾[1] .

أنتم تنتظرون أن يقع بآل بيت النبي «ص» ظلماً أكبر، ونحن ننتظر فيكم عقاب الله المؤلم والمهلك!

---

(١) سورة هود آية ١٢١ ـ ١٢٢.



الخطبة الثانية لسيدة الإسلام
فاطمة الزهراء
«عليها السلام»

* الخطبة المؤلمة في مقابل نساء المدينة

ألقت سيدة النساء «عليها السلام» هذه الخطبة وهي علىٰ فراش المرض، ذلك المرض الذي لم تشف منه أبداً، ومنه سلمت روحها الطاهرة بيد الخالق «جلَّ وعلا»،

كانت خطبتها الأولىٰ في مسجد الرسول «ص» وهي في حالةٍ صحيةٍ جيدة[1]، وبحضور جمعٍ من رجال المهاجرين والأنصار، وكانت هذه الخطبة في مقابل نساء المهاجرين والأنصار في داخل بيتها وعلىٰ فراش المرض.

رغم أن المخاطب قد اختلف، والزمان والمكان قد تغيّرا، والحال قد تردّىٰ، إلا أن لحن الخطبتين ينم وبوضوح عن روحيةٍ عاليةٍ مملوءةٍ بالعلم والمعرفة، مفعمةٍ بالإيمان وحب الله، يفيض من جنبيها ألمٌ وحزن، وقد تميزت كلا الخطبتين بلحنٍ بليغٍ وساحقٍ وأخّاذٍ وقاطعٍ وشجاع، لكن لحن

(١) كما ورد شرحه في الخطبة الأولىٰ، فإن ستاراً قد أُسدل ليحجب النساء، ثم أنها كانت تتوسط جمع النساء الذي رافقها، مرتديةً عباءةً غطّت جميع أجزاء جسدها الشريف بشكلٍ لا يمكن تشخيصها أو تمييزها، ثم ألقت خطبتها من وراء السّتار.

الخطبة الثانية التي هي موضوع بحثنا حالياً كانت أشد تنكيلاً بالظالمين وأكثر حرقةً وألماً وغماً.

لقد كانت هذه الخطبة التي صدرت من قلب بنت الرسول «ص» المتألم بمثابة رسالة همها وغمها.

الهم الذي نغص روحها ونخر عظامها، وأشعل نيران الحرقة في كيانها، من هذا المنطلق نرىٰ أن خطبتها اتخذت طابعاً ملتهباً دموياً لأنها نبعت من قلبٍ محترقٍ فاض بدم الأسىٰ والحسرة.

من عجائب هذه الخطبة هي أن هذه السيدة الجليلة «ع» قد لاقت الكثير من الظلم العنيف في الفترة الواقعة ما بين وفاة أبيها «ص» واستشهادها «عليها السلام»، ذلك الظلم الذي كان سبب مرضها العصيب، ورغم أن سؤال نساء المدينة عند عيادتها كان يدور حول حالتها الصحية، وعادةً يشكو المريض بعضاً من آلامه إن لم يكن حديثه كله مختصاً بحالته الصحية، رغم كل ذلك فإنها لم تورد في حديثها أي كلمةٍ عن حالها ومرضها، بل كان حديثها منصباً علىٰ مسألة غصب الخلافة وظلامة عليٍّ «ع»، والأخطار التي ستمر بالأمة الإسلامية نتيجة هذا الإنحراف.

عجباً لها، فلم تذكر في حديثها شيئاً عن مرضها، فكل ما قالته كان عن ألم زوجها علي «ع» وعن مشاكل العالم الإسلامي.

نعم.. لقد كانت روح الزهراء «عليها السلام» أرفع من أن تتكلم عن نفسها وآلامها ـ رغم أنها كانت كبيرة ـ بل وأجلُّ من أن يوصف علو شأنها، فتكلمت فقط عن إمامها وزوجها المحبوب علي «ع» وآلامه.

لم تكن قلقة علىٰ نفسها، بل كانت قلقةً علىٰ الأمة الإسلامية ومصيرها المشؤوم والمؤلم.

يفكر المرء عادةً في آخر لحظات حياته بنفسه ومشاكله وآلامه، لكنّ المدهش أن فاطمة «ع» لم تورد علىٰ لسانها في هذه الخطبة الطويلة شيئاً من

ذلك، ولا حتىٰ بجملةٍ واحدة.

وهذا أكبر دليل علىٰ عظمة فاطمة «عليها السلام» ومقام تضحيتها وإيثار هذه السيدة الجليلة.

وفي هذا عبرة لكل الأحرار الهادفين ولكل المضحين والفدائيين في تاريخ البشرية.

بلىٰ فقد كانت دائماً ـ وإلىٰ آخر لحظةٍ من حياتها الشريفة المملوءة بالآلام والهموم ـ شمعةً تحترق لتنير لمن حولها وتنجّي الضالين منهم وتدافع عن الحق والعدالة.

تحدّثت في خطبة فدك (الخطبة الأولىٰ لسيدة النساء) عن كلٍّ من التوحيد، النشوء، المعاد، فلسفة الأحكام، والأحداث التي رافقت بعثة النبي «ص» وبركات وجوده، ومسألة غصب الخلافة، ومصير المسلمين، وإن هي تحدثت عن «فدك» فذلك لدورها المؤثر في كونها دعامة ماليةً لمسألة الخلافة وكذا سائر مسائل الإسلام السياسية، وهذا ما دعىٰ الأعداء إلىٰ تضييق الخناق علىٰ آل بيت النبي «ص» وتحطيم قدراتهم بانتزاع «فدك» من أيديهم، فأرادت استرجاعها منهم.

لكنَّ سيدة النساء «عليها السلام» ركزت في خطبتها الثانية «خطبة نساء المهاجرين والأنصار» حديثها علىٰ محور الخلافة والإمامة فقط، وبالرغم من معاناتها للكثير من الظلم والتعسّف، ورغم أن الفرصة كانت سانحةً للمطالبة بحقها المغصوب، إلا أنها لم تطالب بأي شيءٍ بل ولم تنطق بأية شكوىٰ، فكل ما قالته كان عن عليٍّ «ع»، وعن الخلافة وعن مصالح المسلمين.

* * *

يُعدُّ «التسليم المطلق» من المقامات العالية التي يتحلىٰ بها أولياء الله. وهذا يعني أن يسلك إلىٰ الله طريق الحق والعدل الذي ينسىٰ المرء فيه نفسه،

فلا يرىٰ غير الله .

لا يأتمر إلا بأمره

لا يأمل إلا برضاه

لا يفكر إلا بما يريده

فالمرحلة الأولىٰ هي الإسلام، ثم الإيمان وبعد ذلك الرضا، ومن ثم يأتي دور التسليم المطلق، ولهذا المعنىٰ يشير الله سبحانه وتعالىٰ في محكم كتابه الحكيم :

﴿قالَتِ الأعْرابُ آمَنّا قُلْ لَمْ تُؤمِنُوا وَلٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمّا يَدْخُلِ الإِيمٰانُ في قُلُوبِكُمْ﴾[1] .

ويقول أيضاً :

﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤمِنُونَ حَتّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُم ثُمَّ لا يَجِدُوا في أنْفُسِهِم حَرَجاً مِمّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْليماً﴾[2] .

ثم يقول :

﴿إنَّما نُطْعِمُكُم لِوَجْهِ الله لا نُرِيدُ مِنْكُم جَزاءً وَلا شُكُوراً﴾[3] .

إن مقام الإيمان والرضا والتسليم الذي تتحلىٰ به هذه السيدة جعلها تتناسىٰ وتتجاهل آلامها وهمومها المحرقة وتتحدث عن رضا الله، وعن رسوله «ص»، وعن وليّه، وعن مستقبل الإسلام والمسلمين .

مع هذه المقدمة القصيرة عن الخطبة وفحواها، نتّجه صوب نصها، فنجعلها في خمسة أقسام، لكنه ينبغي أن نتعرف أولاً علىٰ وثائق وأسناد هذه

(١) سورة الحجرات آية ١٤ .

(٢) سورة النساء آية ٦٥ .

(٣) سورة الدهر آية ٩ .

الخطبة.

* تحقيق أسناد خطبة سيدة النساء «عليها السلام»

وردت هذه الخطبة في مختلف مصادر العامة والخاصة، سنذكر منها التالي:

١ ـ كتاب «الاحتجاج» للمرحوم «الشيخ الطّبرسي» ـ رضوان الله عليه ـ[١].

٢ ـ كتاب «كشف الغمة» المشهور للكاتب «علي بن عيسىٰ الأربلي» نقلاً عن كتاب «الصحيفة»[٢].

٣ ـ مجلد «بحار الأنوار» للمرحوم «العلاّمة المجلسي» ينقل هذه الخطبة وبأسنادٍ متعددة[٣].

٤ ـ كتاب «معاني الأخبار» للمرحوم «الشيخ الصّدوق» يورد هذه الخطبة مع ذكر سندها في آخرها نقلاً عن عبد الله بن حسن عن أمه فاطمة بنت الإمام الحسين «ع»[٤].

٥ ـ وذُكرت في نفس المصدر بسندها عن علي بن أبي طالب «ع»[٥].

---

(١) الاحتجاج.

(٢) كشف الغمّة ج ٢ ص ١١٨.

(٣) بحار الأنوار ج ٤٣ ص ١٥٨.

(٤) عن أحمد بن الحسن القطّان عن عبد الرحمٰن محمد الحسيني عن أبي الطيّب محمد بن الحسين ابن حميد عن أبي عبد الله محمد بن زكريا عن محمد بن الرحمٰن المهلّبي عن عبد الله بن محمد ابن سليمان عن أبيه عن عبد الله بن الحسن.

(٥) علي بن محمد المعروف بابن المغيرة القزويني عن جعفر بن محمد ابن الحسن عن محمد بن علي الهاشمي عن عيسىٰ بن عبد الله ابن محمد ابن عمر بن علي بن أبي طالب عن جدّه علي بن أبي طالب «ع».

٦ ـ كتاب «الأمالي» للمرحوم «الشيخ الطّوسي».

٧ ـ كتاب «شرح نهج البلاغة» للعالم السنّي المعروف «ابن أبي الحديد»[١].

علىٰ أيّ حالٍ وكما ذكرنا سابقاً، فقد وردت هذه الخطبة بأسنادٍ متعددة مع ملاحظة اختلافٍ في نصوصها، وقد اخترنا أقربها للصحة وأكملها وهو المنقول في «الاحتجاج» عن «سويد بن غفلة». (نقلَ ذلك أيضاً العلاّمة الكبير المجلسي في المجلّد ٤٣ من بحار الأنوار ص ١٦١)[٢].

وبهذا الشكل فإن الخطبة المذكورة هي من الخطب التي وردت علينا من مصادر متعددة وبأسنادٍ معتبرة، لذا فهي بأهميةٍ خاصة.

ولكي نتعرّف علىٰ الحقائق التي تضمنتها هذه الخطبة، نتجه صوب متن الخطبة وتفسيرها.

---

(١) أحمد بن عبد العزيز الجوهري عن محمد بن زكريا عن محمد بن عبد الرحمٰن عن عبد الله بن محمد بن سليمان عن أبيه عن عبد الله بن الحسن عن أمه فاطمة بنت الإمام الحسين «ع».

(٢) «سويد بن غفلة» أو «عفلة» علىٰ حد قول «العلاّمة الحلّي» في «الخلاصة» وهو واحدٌ من أولياء أمير المؤمنين علي «ع»، واعتبره «العلاّمة الميرداماد» (نقلاً عن المرحوم مامقاني) من أولياء وخواص أمير المؤمنين «ع»، كما قال «الذّهبي» في «المختصر» عنه بأنه رجل ثقة، عابد، زاهد، وصاحب مقامٍ رفيع.

القسم الأول

لما مرضت فاطمة عليها السلام المرضة التي توفيت فيها اجتمع إليها نساء المهاجرين والأنصار، يعدنها، فقلن لها:

كيف أصبحت من علّتك يا ابنة رسول الله ؟!

فحمدت الله وصَلّت علىٰ أبيها «ص» ثم قالت:

أصبحت والله عائفةً لدنياكنَّ، قاليةً لرجالكنَّ. لَفظتهم بعد أن عجمتهم وشنأتهم بعد أن سبرتهم.

فقِبحاً لفلول الحدِّ، واللعب بعد الجد، وقرعِ الصفاة، وصدع القناة، وخطل الآراء، وزلل الأهواء، و﴿لَبِئْسَ ما قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أن سَخِطَ الله عَلَيْهِم وَفي العَذابِ هُمْ خالِدُونَ﴾[1].

لا جرم لقد قلّدتهم ربقتها وحملتهم أوقتها وشننت عليهم عارها.

فجدعاً وعقراً وبُعداً للقوم الظالمين.

* * *

التفسير

يعترض الإنسان في طول حياته أياماً وساعات حسّاسةً تكون بمثابة امتحانٍ له، وبالطبع فإن الامتحان الإلهي يُربّي في المرء روحه ويزيد فيه

---

(١) سورة المائدة آية ٨٠.

المقاومة والشهامة كما يتم من خلاله كشف قابلياته وتفتح استعداداتها، وأيضاً معرفة المرء حقيقة باطنه.

علماً أن المرء قد يشتبه أحياناً في معرفة نفسه، لا كما هو الحال في الامتحان البشري الذي يُقام لكشف عددٍ من المجاهيل والتعرف علىٰ بواطن الأفراد من خلال التجربة والتحليل.

وهذه المسألة قد وضحت في هذا القسم من خطبة سيدة الإسلام «عليها السلام».

تظهر الزهراء «عليها السلام» نفرتها وانزعاجها الشديدين ممّن ينتهز الفرصة ليسترزق منها مؤنة يومه، أي من المهاجرين والأنصار لأنهم سكتوا ـ ليس سكوتهم فحسب ـ بل علىٰ موافقتهم للإنحرافات التي حدثت بعد وفاة النبي «ص»، فأنذرتهم بأن يحذروا هذا الإمتحان الإلهي العظيم.

تذكّرهم بجهادهم الرائع في عصر الرسول «ص»، ومن ثم تشبههم بالسيوف المثلومة التي فقدت قدرتها في صدِّ الأعداء ودحرهم، وبالرماح التي تهشمت فأصبحت غير مفيدة لأي شيء.

توبّخ ابنة النبي الكريم «ص» بشدة أولئك الذين سخروا من مبادئ الإسلام وجعلوها عرضةً لأهواءهم، ومن ثم وجهت لومها وتحقيرها إلىٰ من وهن عزمهم، وفقدوا قدراتهم في اتخاذ قرارٍ ضد الإنحرافات التي حدثت.

في نهاية هذا القسم تقوم بإنذارهم بأن مسؤولية غصب الخلافة ستثقل كاهلهم إلىٰ الأبد، وستبقىٰ جباههم موسومة بوصمة العار التي جاءت نتيجةً لسكوتهم، كما أن التأريخ الإسلامي سيسجّل هذه الحادثة المؤلمة بمنتهىٰ الأسف.

نعم، فالكثير منهم لم يخرجوا من الإمتحان منتصرين ولم تكن وجوههم مستبشرة، وكم كان حسناً لو تبيّنت «حقائق الأمور» للعيان حتىٰ

تسـودّ وجـوه «الغشـاشيـن»، وكـم كـان لطيفـاً لـو أُقيمـت منـاقـل النـار ليفضح «مدلوك الذهب وسوار الفضة» باطنه ويتبين للناس حقيقته ليُميزوه عن الذهب الأصيل.

القسم الثاني

ويحهم أنّىٰ زعزعوها عن رواسي الرسالة وقواعد النبوة والدلالة، ومهبط الروح الأمين والطبّين بأمور الدنيا والدين ﴿ألا ذلِكَ هُوَ الخُسْرانُ المُبين﴾[1].

وما الذي نقموا من أبي الحسن «ع»؟

نقموا منه والله نكير سيفه، وقلة مبالاته بحتفه، وشدة وطأته، ونكال وقعته، وتنمُّره في ذات الله.

وتالله لو مالوا عن المحجة اللائحة، وزالوا عن قبول الحجة الواضحة، لَردَّهم إليها، وحملهم عليها، ولسار بهم سيراً محجاً، لا يكلم خشاشه، ولا يكل سائره ولا يمل راكبه.

ولأوردهم منهلاً نميراً صافياً رويّاً تطفح ضفّتاه ولا يترنق جانباه ولأصدرهم بطاناً ونصح لهم سراً وإعلاناً.

ولم يكن يتحلىٰ من الدنيا بطائلٍ، ولا يحظىٰ منها بنائلٍ، غير ري الناهل وشبعة الكافل ولبان لهم الزاهد من الراغب، والصادق من الكاذب.

﴿وَلَوْ أنَّ أَهْلَ القُرىٰ آمَنُوا واتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ وَلكِنْ كَذَّبُوا فأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكسِبُونَ﴾[2].

﴿وَالّذينَ ظَلَمُوا مِنْ هٰؤُلاءِ سَيُصيبُهُم سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَما هُمْ

---

(١) سورة الزمر آية ١٥.

(٢) سورة الأعراف آية ٩٦.

بِمُعْجِزِينَ﴾[1] .

التفسير

* المعايير والقيم الإلهية

تحكم المجتمع الإلهي السليم معايير وقيم إلهيّة في جميع مجالات الحياة، سيما في أشغال المناصب، فلا سبيل للأجنحة ومنتهزي الفرص، والدسائس السياسية والعصبية القبلية والقومية، وكذا ما يعقده تجار السوق السياسي من اتفاقاتٍ خلف الكواليس في ارتقاء المناصب والتصدّي لمسؤوليتها.

تخاطب سيدة النساء «عليها السلام» في هذا القسم نساء المدينة مستفهمة: لماذا؟ وبأيّ رخصةٍ غيّر رجالكنَّ محور الخلافة عن المسير الذي طالما بيّنه الرسول «ص» في أحاديثه الصريحة الواضحة؟ وما هو نقص أبو الحسن علي بن أبي طالب «ع»؟ وهل يفتقد شيئاً من الكمالات اللازمة، روحيةً كانت أم جسدية؟

بلىٰ، إن عيبه هو سيفه الغالب الذي خطف النوم من عيون أعدائه، قدرته اللامتناهية في ميادين القتال، استخفافه بالموت في سوح الوغىٰ، جعلت منه حصناً منيعاً عجز أعداء الإسلام في اختراقه.

فالعذر التافه الذي أُوخذ عليه هو أن توجهه لله فقط، فرضاه من رضا الله، كما أن غضبه وسخطه لوجه الله فقط.

الحقيقة أن كلام سيدة النساء «عليها السلام» كان بمثابة تذكيرٌ لهم بأن قيم ومفاهيم المحيط الإسلامي قد تغيرت وتبدلت بعد وفاة النبي الكريم «ص»، وبسبب انحراف المزاج السليم لأرواح هذه المجموعة من

---

(١) سورة الزمر آية ٥١.

المهاجرين والأنصار، صار طعم القيم الإسلامية الحقيقية في أعماقهم مرّاً كالحنظل بعد أن كان لذيذاً كالعسل، كما اعتبرت الشروط التي تشكل أهم مواصفات القائد القوي القاطع الإلهي عيباً ونقصاً له.

بعدها تستمر في حديثها منبّهةً إياهم أن تنحية عليٍّ «ع» عن الخلافة إنما هو فقدانٌ لنعمةٍ كبيرةٍ وموهبةٍ إلهيةٍ عظيمة، علماً أنه أعلمُ الناس بآيات القرآن وبحلال الله وحرامه.

فهو أعرف من غيره بالحق والباطل والقادر علىٰ الفصل بينهما. ولو آلت إليه زمام الأمور لم يكن ليسمح لورثة مرحلة الشرك (آل أبي سفيان وهم أعدىٰ أعداء الإسلام وأشد المخالفين للقرآن الكريم) أن يطمعوا في الحكومة الإسلامية بهذه السرعة، ويحولوها إلىٰ جهازٍ حكوميٍّ متشبثٍ برأيه، وهو أسوأ وأظلم من حكومة كسرىٰ وقيصر والفراعنة.

فإذا كانت أمورهم مودعةً في يد عليٍّ «ع» المقتدرة، لأجلسهم مركب الحق المنيع، ولهداهم بأمانٍ وهدوءٍ ومداراةٍ إلىٰ نبع ماء الحياة، ومن ثم لرواهم من ذلك النبع المتدفق ماءً عذباً زلالاً يمنح شاربيه حياةً أزليّة.

إنّ من شروط القائد الإلهي هو حب الخير والعطف عليها، فهل وجدوا أحداً أكثر عطفاً وشفقةً من عليٍّ «ع»؟ الشخص الذي كرّس جهده في إشباع الجياع وإرواء العطاشىٰ، يتألم لآلامهم وهمومهم، كما أن غمهم يعصر قلبه.

الشرط الآخر في مسألة الخلافة والإمامة هو الزهد والاستخفاف بالدنيا وجاهها ومالها، فإن تعلّق قلب قائد الأمة بالدنيا صار من السهل النفوذ إليه من هذا الطريق، ومن ثم تضليله وإحرافه عن جادّة الحق.

فهل يوجد في كل الأمة الإسلامية أزهد وأقل ارتباطاً بالدنيا من عليٍّ «ع»؟ الشخص الذي لم يكتنز ذهباً أبداً، ولم يُشيّد لنفسه قصراً، ثيابه بسيطة كثياب غلامه، وغذاؤه بمستوىٰ غذاء أفقر الناس.

إذا كانت معايير الخلافة هي القدرة الروحية والبدنية، الإخلاص في النية والزهد والعصمة والتقوىٰ، والعطف علىٰ الأمة، فمن هو أفضل من أمير المؤمنين علي «ع» الذي يتحلىٰ بهذه المواصفات؟

وإذا كان النبي «ص» قد أقام عليّاً «ع» مقامه ـ أو قد نصّب علياً «ع» خليفةً له ـ مشيراً إلىٰ هذا المعنىٰ مرّات ومرّات عبر عباراتٍ مختلفة الصّيغ، معتبراً إياه أليق من الجميع لهذا المقام، فلأن، ليس هو، الله سبحانه وتعالىٰ اعتبره أليق الناس بهذا المنصب.

تفوم سيدة النساء «عليها السلام» في نهاية هذا القسم بإنذارهم وتحذيرهم بأن لا يظنّوا أن ثمن هذا الكسل والتقصير، وتقاعسهم في حماية الشخص الأنسب للخلافة سيكون رخيصاً، بل عليهم أن ينتظروا ما سيُخلّفه ذلك التقصير وذلك التقاعس ويتذوّقوا نتيجته المرّة، عليهم أن لا يتصوّروا أنهم يستطيعون النجاة والفرار من قبضة العذاب الإلهي في هذه الدنيا، كلا، أبداً.

بلىٰ، سيحصدون في نهاية الأمر ما زرعوا، وسيبتلون بحكوماتٍ عنيدةٍ وجبّاره وفاسدةٍ ومفسدةٍ وظالمةٍ تفتقد الرحمة كحكومات بني أمية وبني العباس، في ذلك اليوم الذي سوف لن يجدوا فيه سبيلاً للفرار وهم يشعرون بمواجهتهم لعذاب الآخرة.

القسم الثالث

ألا هلمَّ فاستمع ومَا عشت أراك الدهر عجباً، وإن تعجب فعجب قولهم:

ليت شعري؟ إلىٰ أي سنادٍ استندوا؟ وعلىٰ أي عمادٍ اعتمدوا؟ وبأية عروةٍ تمسكوا؟ وعلىٰ أية ذريةٍ أقدموا واحتنكوا؟!

﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾(1)، ﴿وَبِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾(2).

استبدلوا والله الذُّنابي بالقوادم، والعجز بالكاهل، فرغماً لمعاطس قوم يحسبون أنهم يُحسنون صنعاً، ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾(3).

ويحهم! ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَىٰ الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لاَ يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدَىٰ فَمَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾(4).

* * *

التفسير

* ترجيح «الراجح» علىٰ «الأرجح»

---

(1) سورة الحج آية ١٣.
(2) سورة الكهف آية ٥٠.
(3) سورة البقرة آية ١٢.
(4) سورة يونس آية ٣٥.

لا يستطيع أيُّ امرىءٍ أن يقبل ترجيح «الراجح» علىٰ «الأرجح» إلاّ مَن يُنكر «الإستقلال العقلي». أو بتعبيرٍ أوضح فإنّ أي إنسانٍ لا يتردد أبداً في تقديم «شيءٍ ذو مزايا عديدة» علىٰ «شيءٍ فاقدٍ لجميعها».

فهل يا ترىٰ سمعتم أن شخصاً عند انتخابه لمعلم ما، يقوم بترجيح الطالب علىٰ الأستاذ؟ أو عند معالجة مرضٍ ما أن يفضِّل طبيباً عادياً قليل الخبرة علىٰ طبيبٍ كبير عظيم الخبرة والتجربة؟ (دون أن تُؤخذ خواص أخرىٰ بنظر الاعتبار) عند انتخاب قائدٍ معيّن، إذا تجاهلنا ذوي التجربة والتدبير والإدارة، واتجهنا صوب الجدد ذوي التجربة القليلة، عندها سيشكّ الجميع بصحة وسلامة عقولنا.

حتىٰ أولئك الذين لا يعتقدون بقبح هذه المسألة (ترجيح «الراجح» علىٰ «الأرجح»)، لا يتجاهلون هذا الأصل في أداء أعمالهم أبداً، بل يعملون دائماً علىٰ ترجيح الأحسن. مثلاً عند شراءهم لفاكهةٍ معيّنة، فهل يتركون الجيد منها ويبتاعون الرديء وغير الناضج منها؟ أو عند اختيار صديقٍ ما، فهل يفضّلون الأشخاص الأشرار ذوي الصيت السيّء علىٰ النزيهين والأخيار؟ كما أن من المستحيل أن يُفضل الإنسان الماء الآسن علىٰ الماء الزّلال، وإن وُجد شخص يفعل ذلك فلا ترديد في كونه ناقص العقل.

نعم، تعمي وتصمّ المنافع المادية أحياناً بصر وسمع الإنسان بشكل تُنسيه منافعه الحقيقية، عندها يؤدي الإنسان عملاً يدفعه إلىٰ تقديم «المتأخّر» علىٰ «المتطوّر». وقد اعتمد القرآن الكريم علىٰ هذا المعنىٰ في تأنيبه للكفار والمشركين الذي لوّثوا أنفسهم بهذا العلم القبيح المرفوض، حيث نقرأ:

﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلىٰ الحقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهْدِي إلاّ أَنْ يُهْدَىٰ فَمَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[1].

---

(١) سورة يونس آية ٣٥.

تضيف السيدة الرشيدة وابنة النبي الكريم «ص» في هذا القسم (القسم الثالث) من خطبتها الغرّاء المؤلمة مشيرةً إلىٰ هذا المعنىٰ:

يا معشر المهاجرين والأنصار! لِم خذلتم من كان له السّبق في الإسلام، وأوّل من بايع الرسول «ص» من الرجال، واتّبعتم من ليس له من هذا الافتخار أي نصيب، (بل وسجد للأصنام حتىٰ بعد بزوغ شمس الإسلام)؟

لِم أبعدتم من هو «بابٌ» لمدينة علم النبي «ص»، والأقدر علىٰ التحكيم والقضاء استناداً إلىٰ حديث الرسول «ص» المشهور «أقضاكم عليٌّ»، وسرتم خلف مَن لا يملك شيئاً من ذلك العلم وتلك المعرفة؟

لقد خالفتم - أو كسرتم - بعملكم هذا القانون الصريح (ترجيح «الأرجح» علىٰ «الراجح»)، وتناسيتم حكم القرآن في هذا الأمر (مضمون الآية التي ذُكرت أعلاه)[1].

تتعجب سيدة الإسلام «عليها السلام» من هذا الأمر بشدّة، وتصف الدنيا بـ«عالم العجائب الذي يعلّم الإنسان في يومٍ ينقضي من عمره درساً جديداً.

تتساءل بعدها عن الدليل الذي دفع هذه المجموعة التي يبدو عليها العقل والتدبير إلىٰ تغيير محور الخلافة، واختيار الآخرين ليحلُّوا محل علي بن أبي طالب «ع»؟ ولأيٍّ من الوثائق استندوا؟ وكيف تجاهلوا ميزات عليٍّ «ع» الواضحة، وقدّموا الراجح عليه؟!

وتستعين في نهاية هذا القسم بالآيات التي تتحدث عن مصير هؤلاء الناس:

---

(١) الأعجبُ من كل ذلك قول ابن أبي الحديد في خطبة كتابه، حيث يقول: «الحمد لله الذي قدّم المفضول علىٰ الفاضل»!!!

﴿لَبِئْسَ المَوْلَىٰ ولَبِئْسَ العشير﴾[1] .

﴿وبِئْسَ لِلظَّالمينَ بدلاً﴾[2] .

---

(١) سورة الحج آية ١٣ .

(٢) سورة الكهف آية ٥٠ .

القسم الرابع

أما لَعمري لقد لقحت، فنظرةٌ ريثما تُنتج، ثم احتلبوا مِلاء القعب دماً عبيطاً وذُعافاً مبيداً «هنالك يخسر المُبطلون» ويعرف التّالون غِبَّ ما أسَّس الأولون، ثم طيبوا عن دنياكم أنفساً واطمئنوا للفتنة جِأشاً.

وأبشروا بسيفٍ صارم، وسطوة معتدٍ غاشم وبَهرجٍ شاملٍ، واستبدادٍ من الظالمين يدع فيئكم زهيداً، وجمعكم حصيداً فيا حسرةً لكم وأنّىٰ بكم وقد عميت عليكم؟ أنُلزمكموها وأنتم لها كارهون.

* * *

التفسير

*** الاختيار الخاطىٰء وثمرته المشؤومة**

يعتقد الكثير من الناس أن تناسيهم للوقائع يجعلها تنساهم هي الأخرىٰ، ولن تأخذهم بجلابيبهم.

هكذا يظنون، يمكن الحصول علىٰ ثمر جيّد من خلال زرع بذرةٍ فاسدة.

نعم، لن يمضِ وقتٌ طويل حتىٰ تتهاوىٰ ظنونهم كما يتهاوىٰ البناء الذي هرّء الدود أركانه، أو كما تزول الفقاعات من علىٰ سطح الماء، أو كالطيف الذي يتلاشىٰ باستيقاظ النائم، عندها يرىٰ الصورة البشعة المشؤومة للواقع الذي نتج عن اختياره اللاصحيح، وسيتذوّق مرارة الأحداث التي سيفرزها عمله اللاموزون.

نعم هذا هو قانون الوجود الذي سيحكم البشرية كما حكمها في جميع مراحلها التاريخية بكل قدرته، وهو أن يرىٰ المخطىء نتيجة وعاقبة عمله،

ويبدّل طعم حياته الرائع في نفسه إلىٰ حنظل، وأحلامه الجميلة إلىٰ كابوس موحش.

تركّز سيدة الإسلام «عليها السلام» في القسم الرابع من خطبتها علىٰ هذا المعنىٰ، حيث تفصح عمّا سيواجهونه نتيجة عملهم المشؤوم:

سيحمل جمل الخلافة بعد انحراف مسيره سريعاً، وسيعانق الأرض منه مولودٌ عجيب الخلقة، عِوض من أن تشربوا حليبه السائغ الهنيء، ستُناوَلون كؤوساً مليئةً بدم جديد، يملأ قداح قلوبكم! وسيُصَبُّ في فيكم السُّم المميت بدل الحليب الطازج.

وبالتدريج سيأتي دور ظلّام التأريخ وأبناء وأحفاد «أبو سفيان» و«الحجّاج» و«الأشاعثة» ومَن هو أسوأ منهم، الذين سيُسلّطون سيوفهم علىٰ رقابكم ورقاب أبنائكم، وسيحصدون ثمار حياتكم بمنجلهم المميت.

سوف لن يكتفوا بسرقة أموالكم وسبي نسائكم، وإنّما سيُقيمون فيكم قتلاً جماعياً متكرّراً، تتلوّن علىٰ أثره الأرض بلون دمائكم، بما في ذلك أرض مسجد النبي الكريم «ص»، نعم فسيعملون فيكم وفي أبنائكم القتل في داخل المسجد الشريف ثاني الحرمين الآمنين حتىٰ يطفح صحن المسجد بالدم، بل وسيهتكون حرمة بيت الله الحرام بقصفِه بالحجارة بواسطة المنجنيق، وسيتلقّفوكم بسيوفهم في داخله وخارجه!

لقد حلّق بكم الخيال بعيداً، فظننتم أنّ أعذاركم الواهية في تخليكم عن نصرة الحق والدفاع عن خليفة الرسول «ص» سينجيكم من الجزاء الإلهي بسهولة، وستفرّون عندها من عواقب أعمالكم السيئة، هيهات، فذلك تصوّرٌ باطل! هيهات، فذلك خيالٌ محال!

واليوم... نعم في هذا اليوم وعندما نتفحّص صفحات التأريخ المنصرم ندرك أكثر من أي وقت حقيقة وواقعية حديث الزهراء «عليها السلام» ذو المحتوىٰ القيّم، فما أتعس العواقب التي حلّت بالمسلمين نتيجة

انحراف محور الخلافة عن مسارها الأصلي؟ وكيف أصبحت أرواحهم وأموالهم وأعراضهم، والأكثر من ذلك قوانين وأحكام ومقدسات الإسلام لعبةً بيد ورثة أحزاب الجاهلية؟!

لم يرحم عمّال بني أميةَ الكبير ولا الصغير

لم يُراعوا حرَمَ رسول الله «ص» ولا احترام بيت الله «سبحانه وتعالىٰ»

لم يكنّوا احتراماً للمهاجرين وكذا للأنصار.

فيوصي واحدٌ من أبناء «آل سفيان» إلىٰ من حوله:

تلقّفوها يا بني أمية تلقُّف الكُرة فوَالّذي يحلف به أبو سفيان ما من جنّةٍ ولا نارٍ.

فماذا أكثر من ذلك!

لذا يقول معاوية بن أبي سفيان أيضاً:

ما قاتلتكم لتُصلّوا ولا لتصوموا... بل قاتلتكم لأتأمّر عليكم.

والأسوأ من ذلك تلك القصة التي ينقلها العلاّمة المعتزلي الشهير «ابن أبي الحديد» في شرح نهج البلاغة حيث يقول:

«وقد طعن كثيرٌ من أصحابنا في دين معاوية، ولم يقتصروا علىٰ تفسيقه، وقالوا عنه إنّه كان ملحداً لا يعتقد النبوة، ونقلوا عنه في فلتات كلامه وسقطات ألفاظه ما يدل علىٰ ذلك.

وروىٰ الزبير بن بكّار في «الموفقيّات» وهو غير متهم علىٰ معاوية، ولا منسوب إلىٰ اعتقاد الشيعة، لما هو معلوم من حاله من مجانبة عليٍّ عليه السلام، والانحراف عنه: قال المطرّف بن المغيرة بن شعبة: دخلت مع أبي علىٰ معاوية، وكان أبي يأتيه، فيتحدث معه، ثم ينصرف إليَّ فيذكر معاوية وعقله، ويعجب بما يرىٰ منه، إذ جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء، ورأيته

مغتمّاً فانتظرته ساعةً، وظننت أنه لأمرٍ حدث فينا، فقلت: مالي أراك مغتمّاً منذ الليلة؟ فقال: يا بُني، جئت من عند أكفر الناس وأخبثهم، قلت: وما ذاك؟ قال: قلت له وقد خلوت به: إنك قد بلغت سنّاً يا أمير المؤمنين، فلو أظهرت عدلاً، وبسطت خيراً فإنك قد كبرت؛ ولو نظرت إلىٰ إخوتك من بني هاشم، فوصلت أرحامهم فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه، وإنَّ ذلك مما يبقىٰ لك ذكره وثوابه؛ فقال: هيهات هيهات! أيّ ذكرٍ أرجو بقاءه! مَلك أخو تَيم فعدل، (إشارة للخليفة الثاني) وفعل ما فعل، فما عدا أن هلك حتىٰ هلك ذكره؛ إلا أن يقول قائل: أبو بكر؛ ثم ملك أخو عدي، فاجتهد وشمّر عشر سنين؛ فما عدا أن هلك ذكره؛ إلا أن يقول قائل: عمر، وإنَّ ابن أبي كبشة (إشارة إلىٰ الرسول الكريم «ص») ليُصاح به كل يوم خمس مرات: «أشهد أنَّ محمّداً رسول الله»، فأيّ عملٍ يبقىٰ؟ وأي ذكرٍ يَدوم بعد هذا لا أباً لك! لا والله إلّا دفناً دفنا»[1].

وبعدها مباشرةً يقوم يزيد حفيد أبو سفيان برفع الستار ونشر نعرته المستهترة علناً حيث يقول:

لَعِبَت هاشمُ بالمُلكِ فلا خبرٌ جاءَ ولا وحيٌ نَزَلْ

وبهذا الشكل بان وتأكّد ذلك الكفر والأجرام الذي نطق به أبو سفيان.

إن حالة السجون الأموية والتعذيب القاسي الذي سلّطه الأمويون علىٰ سجنائهم لم يسوّد تأريخ الإسلام فحسب بل وحتىٰ تأريخ البشرية، وهذا مصداق مقولة سيدة الإسلام «عليها السلام».

نعم، فقد كانت حوادث المستقبل منعكسة بصورةٍ جيدة في صفحات قلبها المشرقة، وطبقاً لما أخبرت عنه في هذه الخطبة، فسرعان ما هجم المتسلّطون المتجاوزون علىٰ الناس بصوارمهم الحادة مستبدّين في الحكم مستهزئين بدين وروح ومال وناموس الناس.

---

(١) شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ج ٥ ص ١٢٩.

لقد ألقىٰ الهرج والمرج ظلّه المشؤوم الثقيل علىٰ المجتمع الإسلامي، وذاق المسلمون مرارة ذلك التقصير والوهن في حماية الحق.

وهذا جزاء أولئك الذين يتركون الحق ويتّبعون الباطل.

القسم الخامس

قال سُويد بن غفلة، فأعادت النساء قولها «عليها السلام» علىٰ رجالهنَّ فجاء إليها قومٌ من وجوه المهاجرين والأنصار معتذرين وقالوا:

يا سيدة النساء لو كان أبو الحسن ذكر لنا هٰذا الأمر من قبل أن نُبرم العهد، ونُحكم العقد، لما عدلنا عنه إلىٰ غيره.

فقالت: إليكم عني فلا عذر بعد تعذيركم، ولاٰ أمر بعد تقصيركم.

* * *

التفسير

* الأجوبة القبيحة والمؤلمة

الأقبح من كل شيءٍ جواب مجموعة المهاجرين والأنصار الذي ردّدوه في محضرها بعد سماعهم لرسالتها، حيث كان جوابهم مؤلماً جارحاً له وقعُ الخنجر علىٰ قلبها الطاهر.

كان للخطبة وقع مؤثر في نفوسهم، فأحسّوا بالخجل، وربما فزعوا من الجزاء الإلهي في الدنيا والآخرة، مما دعاهم ذلك إلىٰ الإسراع في الإستجازة للتشرف بالحضور بين يدي بنت رسول الله «ص» وعرض جوابهم الذي كان محتواه أنّ:

لِمَ لم يَمدّ أبو الحسن علي ابن أبي طالب «ع» يده لنُبايعه قبل أن يأخذ الآخرون البيعة لأنفسهم، فنبارك مقدمه، وندافع عن حكومته؟ نعمل على إطاعته، ونستجيب لأوامره من صميم قلوبنا وأرواحنا. وبوجوده لم نكر

لنقدِّم أحداً عليه لأنه أليق من غيره لهذا الأمر، وأقرب الناس لرسول الله «ص» ودينه وفكره.

ولكن يا للأسف فقد فات الأوان! فبعد أن صافحنا أياديهم الممدودة للمبايعة، وطوّقنا رقابنا بعهد الطاعة، وبسبب تعزيز ذاك الارتباط في هذا الأمر فإنه قد أُغلقت جميع الطرق بوجوهنا ولا سبيل للعودة!

أمّا ليتهم لم يتذرّعوا بذلك العذر في محضر سيدة الإسلام «عليها السلام» الذي هو أشد قسوةً من فِعلهم، جواب قبيحٌ، وعذرٌ مفتضح كاذب، كلامٌ آلم قلبها الطاهر بشدة، وزاد من هموم روحها الجسيمة همّاً آخر.

ليتهم أقرّوا بذنبهم علىٰ الأقل، وليتهم وعدوها بالرّجوع في الفرصة المناسبة، ولم ينطق لسانهم بذلك العذر الواهي، بالإضافة إلىٰ:

أوّلاً: أنهم سمعوا من شخص رسول الله «ص» ولِعدّة مرات أن الوصاية والخلافة لن تكون إلا لعليٍّ بن أبي طالب «ع»، وهذا الأمر يغني عن إجراء البيعة له.

ثانياً: علىٰ فرض أن إجراء البيعة كان لازماً، ألم يأخذ الرسول «ص» منهم البيعة لعليٍّ «ع» في غدير خم، تلك القصة التي لم تكن لتخفىٰ علىٰ أحد، فهي أحداثٌ عاشوها وشاهدوها عن قرب أو سمعوا بها علىٰ الأقل.

ثالثاً: علىٰ فرض أنّهم لم يحضروا بيعة الغدير ولم يسمعوا حديث الرسول «ص» في ذلك اليوم، فهل خفي علىٰ أحدٍ منهم أفضلية عليٍّ «ع» علىٰ الآخرين؟!

لماذا لم يأتي الجمع إليه بعد وفاة النبي «ص» ويمدّوا أيديهم مجددين له البيعة إن لزم الأمر؟

لم تكن الخلافة حقّاً شخصياً مختصّاً بأمير المؤمنين علي «ع» حتىٰ يحتاج إلىٰ أن يطالب بحقه، ولكن الخلافة حقٌّ عموميٌّ متعلقٌ بالمجتمع الإسلامي، لا بل بالإسلام ككل، لهذا نصّب الرسول «ص» عليّاً في هذا

المقام بأمرٍ من الله «سبحانه وتعالىٰ».

يُعدُّ قبول علي «ع» للخلافة وتأييد المسلمين له من الوظائف الإلهية الحتمية، ولا معنىٰ للاستفسارات «لِمَ ولأنَّ» و«إذا وكيف» و«كذا وهكذا».

رابعاً: لو افترضنا أنه كان علىٰ عليٍّ «ع» أن يأخذ البيعة لنفسه ويخلف الرسول «ص» في الناس، فهل يا ترىٰ من اللائق أن يبقىٰ جسد الرسول «ص» الطاهر علىٰ الأرض دون تكفينٍ وتدفين والاهتمام بمسألة الخلافة وكرسيّها.

ما أحقر تلك المؤامرة، لِمَ أدبر جمعٌ منهم عن مراسم دفن الحبيب وأسرعوا في الحضور في مراسم تنصيب الخليفة؟ لماذا؟

خامساً: لو تغاضينا عن جميع ذلك، ولو أن شخصاً اختار لنفسه قائداً ومن ثم عرف أنه أخطأ في اختياره، وأن طريقه هذا سينتهي به إلىٰ التهلكة، فهل عليه أن يستمر في طريقه ذاك ويسقط في تلك الهاوية لا لشيء سوىٰ أنه بايع ووعد بالوفاء؟! أيّ منطقٍ وقانونٍ، وأي عقلٍ يحكم بهذا؟

تذكيرٌ ضروري ـ فذكِّر إن نفعت الذكرىٰ ـ

يتبادر في نهاية هذا الموضوع إلىٰ الذهن مسألةٌ مهمة، وهي أن الخطبة رغم أنها خصت بالذكر مسألة خلافة وولاية علي «ع»، إلا أنها كانت درساً مفيداً لكل المسلمين عبر مراحل التأريخ، وهو ألّا يستخفّوا في الأمور التي تخص الحكومة الإسلامية، ولا يناصروا مَن هم ليسوا أهلاً لها، ولا يتعاملوا مع هذه المسألة تعاملاً سطحياً، ولا يقدّموا الراجح علىٰ الأرجح في اختيار المتصدّين لأشغال المناصب الحسّاسة، وإن هم لم يُراعوا تلك النقاط فعليهم أن يترقبّوا نتيجة أعمالهم المشؤومة، وليعلموا أنهم سيعيشون العواقب الوخيمة للحكومات الفاسدة المستبدة الطاغوتيّة.

بعدها ستُذرف دموع الحسرة والندّامة نتيجة ذلك التقصير.

دموعٌ لا تُثمر إلا عن الحسرة والندامة والفضيحة.

فهرس الموضوعات

الموضوع — الصفحة



دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

تلفون وفاكس: ٨٣٤٢٦٥ - ٣١١٤٢٥ - تلكس MCS٢٠٧٧٧ - ٢٢٥٩٧ بلاع.
ص.ب. ٢٥/٢٨٦ غبيري - بيروت لبنان